

إهـــــــداء ٢٠٠٨
دار الكتب و الوثائق القومية
**القاهرة**

دفاع عن الصحابة

(٣)




أ.د عبد الحليم عويس

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

مركز التنوير للدراسات الإنسانية

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٧٢٣٧ / ٣٠ - ١٢ - ٢٠٠٧م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر - إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عويس ، عبد الحليم
علي بن أبي طالب المفترى عليه / عبد الحليم عويس . ط١ . - القاهرة : مركز التنوير للدراسات الإنسانية ، ٢٠٠٧م
٩٦ ص ؛ ٢٤سم . - ( دفاع عن الصحابة ؛ ٢ )
١- الصحابة والتابعون - دفع مطاعن
٢- علي بن أبي طالب ، علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ٦٠٠ - ٦٦١
أ - العنوان ٣٩٩و٢١٦

مركز التنوير للدراسات الإنسانية : القاهرة
ت ٠٠٢٠٢٢٤٧٢٧١٣٧ - فاكس ٠٠٢٠٢٢٤٧٢٧١٢٨
Emil : Tanweer208@yahoo.com

# الإهداء

وبين يدي الخليفة الرابع .. أمير المؤمنين .. الفارس العادل الشجاع الزاهد ... نسوق هذه الصفحات .. لنقول فيها كلمة حق .. تبدد الغيوم التي صنعها أصدقاؤه وأعداؤه معاً ... ورحم الله علي بن أبي طالب ... المفترى عليه في حياته وبعد وفاته ...

ورضي الله عن أم المؤمين عائشة ... وعن طلحة والزبير ... ورضي الله عن صحابة رسول الله ﷺ أجمعين ...

{مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً} (الأحزاب :٢٣) صدق الله العظيم

**المؤلف**

## توطئة

## علي ... المفترى عليه

علي بن أبي طالب ، العالم .. الفقيه .. الشجاع .. التقي .. النقي .. الورع .. ربيب بيت النبوة والتلميذ النجيب الناجح المتخرج من بيت النبوة .. نموذج كريم تربى في أحضان المدرسة المحمدية .. أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيراً ... يذكر له التاريخ بكل فخر السبق في الإسلام؛ فهو أول فتى يدخل في الإسلام، ويؤمن بمحمد ﷺ فاستحق أن يكون أحد العشرة المبشرين بالجنة.. ومثل علي في ذلك أخوة له .. على الدرب نفسه، سبقوه في شيء .. وسبقهم في شيء .. والعظمة حظوظ .. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .. فكانت السلسلة الذهبية بعد نور النبوة العظيم .. أبو بكر وعمر وعثمان .. ثم جاء علي فختمت به الحلقة ..

لكن عليًّا ﷺ شأنه شأن عثمان .. امتطى اسمه الكريم ناس مغرضون ذوو مآرب .. على رأسهم إمام الباطنية عبد الله بن سبأ .. الذي خلف من بعده مدرسة ضالة .. شوهت جمال التاريخ الإسلامي .. وأضاعت الصلاة واتبعت الشهوات .. وجعلت عليًّا ـــ حاشاه ـــ وكأنه مكمل للنبوة .. فكأن النبوة لم تكتمل قبله، وكأن الله لم ينزل في كتابه الكريم { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً}[1]... بل إن بعضهم لتلمح في كتاباته وكأنه يوقر عليًّا ويجله ويشعر بالهيبة أمام اسمه .. فتحس وكأنه يفضله على إمام الإنسانية محمد ـــ عليه أفضل الصلاة والسلام ، فضلاً عن تصريحهم وإفكهم في التقليل من شأن الراشدين الذين سبقوه .

* * * *

---

(١) المائدة : ٣.

وليس عليٌّ بدعاً في التاريخ .. في هذا الشأن .. فكم من جماعة تاجرت بإنسان .. ورفعته بعد موته .. بينما كانت حال حياته سبب بلائه ونكبته .. وإلا فمن أسلم الحسين للقتل؟ (١) .

لكن عليًّا ملك للإسلام وللتاريخ الإسلامي وأبناؤه جميعاً وكل المسلمين الصادقين إنما هم شيعة للقرآن والسنة ... بالدرجة الأولى ... ثم لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي بهذا الترتيب ، وليس ثمة مسلم صادق يستطيع أن يتنكر ليد علي في الإسلام .. ولمناقبه .. أو لجهاده .. أيام الرسول ﷺ وبعده ...

والمسلمون ــ كل المسلمين ــ بالرغم من اختلافهم في رؤية دور بني أمية أو في تقدير شخص معاوية ويزيد بخاصة يكنون تقديراً خاصًّا ... ولوناً من الحب لشخصية علي ولأبنائه ... وليس مبعث ذلك الشعور أنه وقع عليهم نوع من الظلم في قضية توليتهم الخلافة .. فأمر ذلك للمسلمين

---

(١) لقد أرسل أهل الكوفة غداة وفاة الخليفة معاوية بن أبي سفيان إلى الحسين بن علي يبايعونه بالخلافة، ويعدونه النصرة والمساعدة، فامتنع الحسين عن بيعة يزيد بن معاوية، ورحل إلى مكة؛ خشية أن يُكره على المبايعة ليزيد. ولم يكد الحسين يصل إلى مكة حتى اتصل به أهلها وجعلوا يترددون عليه ويجتمعون عنده، كما تتابعت رسائل الكوفيين إليه يسألونه القدوم عليهم ليسلموا الأمر إليه ويطردوا النعمان بن بشير عامل الأمويين على الكوفة.

فأرسل الحسين إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل ليستوثق من إخلاصهم له وصدق إيمانهم بحقه في الخلافة، قبل أن يقدم عليهم بنفسه، وقد بايع للحسين من أهالي الكوفة ثمانية عشر ألفاً على يد مسلم بن عقيل الذي أرسل إلى الحسين يسأله القدوم إلى الكوفة.

ونتيجة تخاذل النعمان بن بشير والي الكوفة عن مقاومة هذا التمرد وذلك الإقبال المتزايد على مبايعة الحسين، قام يزيد بن معاوية بعزله، وعهد بالكوفة إلى عبد الله بن زياد عامله على البصرة، فجمع بذلك بين الولايتين.

وقد نجح عبد الله بن زياد ــ رجل الأمويين المخلص ــ في القبض على مسلم بن عقيل وقتله وإرهاب كل من مال إلى دعوته من الكوفيين وتخويفهم عاقبة التمرد والعصيان، والواقع أن قلوب هؤلاء كانت مع الحسين وسيوفهم مع بني أمية .

ولم يذعن الحسين لنصيحة عبد الله بن عباس الذي حاول أن يثنيه عن الخروج إلى الكوفة؛ إشفاقاً عليه وخوفاً من أن يخذله الكوفيون كما خذلوا أباه من قبل بعد أن بذلوا له عهود الولاء ومواثيق النصرة.

وفي التاسع من المحرم سنة (٦١هـ) التقى الحسين في نفر قليل من آل بيته وأصحابه لا يزيدون على مائة بقوات الأمويين في كربلاء، وفي معركة غير متكافئة قتل الحسين بعد أن أباد الأمويون عصبته الصغيرة، واحتزوا رءوسهم وحملت على أطراف الرماح . وذلك دون أن يبذل أهالي الكوفة الذين زعموا انتصارهم لآل البيت ورفعوا شعار أحقيتهم بالخلافة وزينوا للحسين الخروج إليهم أدنى جهد لحماية الحسين من المصير المؤلم المأساوي الذي آل إليه.

انظر في مقتل الحسين بن علي ــ رضي الله عنهما ــ المسعودي : مروج الذهب ٦٤/٣، وما بعدها ، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٧/٤، وما بعدها، د/ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية ، ص: ٣٧٦، وما بعدها.

جميعاً .. وليست الشعوب والأمم ميراثاً تنقل ملكيته .. ثم إن الذين تولوها سواء أبو بكر أو عمر أو عثمان .. أو معاوية .. هم مسلمون لهم حق الترشيح لهذا المنصب وتتوافر فيهم كل شروطه .. وما يؤخذ على معاوية لا يؤخذ عليه من هذا الجانب ..

إنما الحب الذي انساب في دماء المسلمين لأسرة علي .. هو جزء من الحب المنساب في الأمة لرسولها الكريم ـــ بالدرجة الأولى ـــ ثم هو حب أذكته الطريقة التي استشهد بها بعض أبناء البيت النبوي، وكانت طريقة مأساوية جرحت العاطفة الإسلامية ... مهما اختلف البعض في الأسباب وفي قضية الخلاف الأساسي !..

فلماذا إذن يا ترى .. يريد بعض المغرضين تقسيم الأمة الإسلامية .. على أساس أن هناك شيعة لعلي وشيعة لغيره ... مع أن كل السلف وجميع المنتمين إلى مذهب أهل السنة والجماعة إنما هم شيعة لهذا الجيل كله .. والقرآن والسنة .. وهل جاء علي بشيء تكملة أو إضافة للإسلام .. فيتحيز له البعض ويقال للآخرين : لستم شيعة ؟ ... ويا ترى ... لماذا لا تكون هناك شيعة لأبي بكر ... ولعمر ... ولأبي ذر .. وللشافعي ... ومالك ... وللحسن البصري .. وهكذا ينقسم المسلمون شيعاً وأحزاباً ؟؟ ..

وقد أسفنا كل الأسف لكاتب كتب كتاباً ملأه قيحاً وصديداً من عفن فكره ... حيث قسم الإسلام نفسه.. إلى قسمين: إسلام شيعي .. وإسلام لا شيعي، ثم أجهد نفسه ليثبت أن الإسلام الشيعي آصل وآكد وأقدم ..

ونحن نسأل هذا الكاتب وأمثاله : ترى أي إسلام نزل على محمد ﷺ ؟ .. أي إسلام جاء في القرآن ووضحته السنة القولية والفعلية والتقريرية ؟ ...

إننا ـــ مخلصين ـــ نريد هذا الإسلام وكفى، والذي قال فيه ربنا عز وجل : "ورضيت لكم الإسلام ديناً".

إن عليًا رضي الله عنه له موقعه العظيم من فكرنا ونفوسنا .. وفي داخلنا ... وفي تاريخنا ... وهو بموقعه ذلك في غنى عن أن تلفق له الأخبار ... وتحشد لتاريخه وعلى لسانه ـــ حاشاه ـــ الأكاذيب بل والتنبؤات التي لا يعلمها إلا الله ....

إنه أول من أسلم من الصبيان ... وقد تربى في حضن الرسول ﷺ ... وشهد المشاهد كلها ــ عــدا تبوك ــ وقضى على صناديد الشرك، وتميز بشجاعة فائقة .. وكان زاهداً عالمــاً .. وكــان خــاتم الراشدين الأربعة ... واستأهل أن يتزوج بفاطمة .. وأن يؤاخيه الرسول ﷺ ... فهل يحتاج إلى مجــد يُنتحل له؟ ..

رضي الله عن علي ... وحرس تاريخه من أصدقائه قبل أعدائه ...

(والله من وراء القصد)

**د/ عبد الحليم عويس**

## في بيت النبوة

في بيت النبوة نشأ وترعرع علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن عبد مناف ، ﷺ وكرم وجهه ...
أجل ... فإن عليًّا الذي ولد في السنة الثانية والثلاثين من مولد رسول الله ﷺ لم يكد يقترب من سن البلوغ حتى وجد نفسه في بيت ابن عمه نبي الإسلام محمد ﷺ وخاتم المرسلين .

ففي ظلال محمد ﷺ استروح عليٌّ نسمات الحياة الأولى، حيث وجد في محمد عليه الصلاة والسلام حنان الأبوة وأخلاق النبوة، وأحس بأن قدره قد ساقه إلى خير ما تسوق إليه الأقدار إنساناً في حاضره، كما أنها قد ساقته إلى شيء كبير من هذا الخير حين جعلته يتفرع من هذه الدوحة الهاشمية الكريمة في ماضيه ...

وبين الماضي الكريم الممتد من أبي طالب وعبد المطلب، والذي يلتقي مع محمد في جده الأول من ناحية الأب بينما يلتقي معه من ناحية أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف في جده الثاني ...

بين هذا الماضي المؤثر العريق وبين الحاضر المكلوء بظلال البيت النبوي عاش علي سنوات عمره الأولى .. رفيقاً لمحمد ﷺ .. وابناً ... ثم مستشاراً .. وصديقاً .. وقريباً إلى قلبه وفكره أكثر ما يكون القرب ..

****

لقد ثقلت أعباء الحياة بأبي بطالب وشعر الذين حوله من عشيرته بما يكابده .. فهرعوا بأريحية العربي الكريم إليه يشاطرونه همومه وأعباءه ..

لقد كان أبو طالب رجلاً كثير الأولاد محدود الإمكانيات ... ولما أصاب القحط قريشاً أهاب الرسول ﷺ بعميه حمزة والعباس أن يحملوا عن أبي طالب شيئاً من أثقاله في تلك الأزمة .. فأخذ العباس طالباً وأخذ حمزة جعفراً، وأخذ النبي (عليه الصلاة والسلام) عليًّا ، أما آخرهم وهو عقيل فقد استبقاه أبو طالب لنفسه لميله إليه وولعه به ..

قال ابن إسحاق : كان من نعمة الله على علي بن أبي طالب، ومما صنع الله له وأراده به من الخير أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة، فقال رسول الله ﷺ لعمه العباس

وكان من أيسر بني هاشم : يا عباس ، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بن إليه، فلنخفف عنه من عياله ، آخذ من بنيه رجلاً، وتأخذ أنت رجلاً فنكلهما عنه"، فقال العباس : نعم ، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا له : إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما أبو طالب : إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما . فأخذ رسول الله ﷺ عليًّا فضمه إليه وأخذ العباس جعفراً فضمه إليه، فلم يزل علي مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبيًّا ، فاتبعه علي وآمن به وصدقه، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه(١).

وبالرغم من حداثة سنه على ما في هذه السن من قصور عقلي وعدم إدراك فقد أدرك علي بن أبي طالب من شئون الدعوة المحمدية ما يعجز عن فهمه وإدراكه أقرانُه ولِدَاتُه.

وقد نشأ ﷺ قوي البنيان وبدت عليه ملامح الرجولة في سن مبكرة، يصفه معاصروه بأنه : "ربعه ـ ليس بالطويل ولا بالقصير ـ آدم ـ أسمر ـ شديد الأدمة، أصلع، مبيض الرأس، ثقيل العينين في دعج وسعة (سعة العين مع سوادها)، حسن الوجه، واضح البشاشة، أغيد كأنما عنقه إبريق فضة، عريض المنكبين لا يتبين عضده من ساعده قد أدمجت إدماجاً .. يميل إلى السمنة في غير إفراط، ضخم الذراع والساق، يتكفأ في مشيته على نحو يقارب مشية النبي ﷺ .

وعن الشعبي قال : رأيت عليًّا وكان عريض اللحية، وقد أخذت ما بين منكبيه، أصلع على رأسه زغبيات.

ولقوته لم يكن يحفل بشتاء ولا صيف؛ بل كان يلبس ملابس الشتاء في الصيف وملابس الصيف في الشتاء، وسئل عن ذلك فقال : "إن رسول الله ﷺ بعث إلي وأنا أرمد العين يوم خيبر، فقلت: يا رسول الله إني أرمد العين، فقال : اللهم أذهب عنه الحر والبرد. فما وجدت حرًّا ولا برداً منذ يومئذ .

وعن أبي الوضيء القيسي قال : ربما رأيت عليًّا يخطبنا وعليه إزار ورداء مرتدياً به غير ملتحف،

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام ١٧٨/١.

وعمامة فينظر إلى شعر صدره وبطنه (١) .

ولا يفهم من ذلك ــ كما يقول الأستاذ العقاد ــ أنه رضوان الله عليه كان معدوم الحس بالحر والبرد؛ فقد كان يرعد بالبرد؛ إذا اشتد و لم يتخذ له عدة من دثار يقيه، وقد جاءت الأخبار بما يدل على تمتعه بقوة جسدية غير عادية، ومن أخباره أنه ربما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهد ولا حافل، وإذا أمسك بذراع الرجل فكأنما أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفس ، وقد اشتهر عنه أنه لم يصارع أحداً إلا صرعه و لم يبارز أحداً إلا قتله (٢).

فالأصل الكريم مَحْتِده وحسبه والبيت النبوي منشؤه ونسبه

وقوة الذاكرة والجسم من خصائصه الفطرية ﷺ .

* * * * *

---

(١) راجع في صفة علي بن أبي طالب ، طبقات بن سعد ٢٣/٣ ــ ٢٥.

(٢) انظر : عباس محمود العقاد : عبقرية الإمام ، ص: ٨.

# أول المسلمين

مع بداية الأيام الأولى للإسلام .. سارع ثلاثة نفر في بيت النبوة إلى الإسلام دون لجاجة من فكر أو تردد في رأي : السيدة الفاضلة والزوجة الصالحة وأم المؤمنين خديجة بنت خويلد من النساء، وعلي من الصبيان، وزيد بن حارثة مولى الرسول ﷺ كأول عبد اعتنق الدين الجديد ... وبهذه الخطوة تحول البيت النبوية الكريم إلى الإسلام وتكونت الخلية الأولى في البناء الإسلامي الجديد [1].

وهنا لمحة لا يجوز أن تغيب عنا؛ فإن من المعروف بداية أن أعرف الناس بالإنسان هم أهله، وأنه إذا استطاع إنسان أن يخدع كل الناس فمن الصعب أن يخدع أقرب الناس إليه وأعرفهم به، ولقد قيل بحق : إن كل عظيم هو شيء عادي في بيته ومع زوجه وأهله، فالعظيم حينما يدخل بيته فإنما يدع وراء ظهره ثياب العظمة ويتجرد من الهالة المحيطة به، وقد كان من المتوقع إذن أن يتباطأ البيت النبوي في قبول الدعوة؛ لكن هذه الاستجابة السريعة منهم للإسلام تكشف بجلاء عن صدق محمد ﷺ في دعواه ، وكيف أنه كان في قمة الخلق حتى بالنسبة للذين يشاطرونه النوم والأكل، ويعتبر إسلام علي وخديجة وزيد في حد ذاته دليلاً على صدق أهلية محمد ﷺ وعلى ما يتمتع به هذا النبي الكريم من خلق عظيم .

لقد سأل علي رسول الله ﷺ وهو ابن عشر سنين أسئلة محددة :

ـــ ماذا أراك تصنع؟

ـــ إني أصلي لله رب العالمين.

ـــ ومن يكون رب العالمين؟

إنه إله واحد لا شريك له له الخلق ، وبيده الأمر، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير.

وأمام هذا البيان البسيط الواضح، لم يتردد الغلام الصغير في أن ينطق بالشهادتين.

ومنذ ذلك الحين وعلي مع النبي ﷺ لا يفارقه، يصلي معه ويصغي إليه ويراه وهو يتهيأ لتلقي الوحي، وكم من آيات كان هو أول من يسمعها وهي لا تزال حديثة بمنزلها ووحيها ...

---

(١) انظر : سيرة ابن هشام ١٧٤/١.

والغريب أن أبا طالب عندما رأى ولده يصلي خفية وراء النبي ﷺ ذات يوم وفاجأه علي بأنه قد اعتنق الإسلام .. قال له أبوه : "أما أنه لا يدعو إلا إلى خير فالزمه" .

وليس ذلك فحسب بل إن أبا طالب رأى النبي ﷺ يوماً يصلي وقد وقف علي إلى يمينه ولمح من بعد ولده جعفراً، فناداه حتى إذا اقترب منه قال له : صل جناح ابن عمك وصل عن يساره.

أو ليس ذلك دليلاً آخر على صدق نبوة محمد ﷺ ؟

وهكذا كان أبو طالب .. رجلاً سمح الفكر ، دمث الخلق، و لم يكن ينقصه إلا أن يشهر إسلامه مثل ولديه، إلا أن إرادة الله غالبة!

وقد نقل ابن إسحاق عن بعض أهل العلم بالسيرة أن أبا طالب قال لرسول الله ﷺ : يا ابن أخي ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ فقال النبي ﷺ : أي عم، هذا دين الله ودين ملائكته ، ودين رسله ودين أبينا إبراهيم ، بعثني الله به رسولاً إلى العباد، وأنت أي عم أحق من بذلت له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني إليه، وأعانني عليه".

فقال أبو طالب : أي ابن أخي، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص إليك بشيء تكرهه ما بقيت.

وقد صدق أبو طالب فيما بذله لابن أخيه من وعود تتيح له أن يمضي في سبيل الدعوة إلى الله آمناً من إيذاء قريشٍ ومكرها به، وظل أبو طالب حامياً لرسول الله ﷺ قائماً دونه معلناً استعداده للدفاع عنه، لذلك مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب وفي مقدمتهم أبو سفيان بن حرب فقالوا له : " يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه؛ فإنك على مثل ما نحن عليه من خلاف فسنكفيكه"، فردّهم أبو طالب ردًّا جميلاً، ومضى محمد يشتد في الدعوة إلى رسالته، ويزداد لدعوته أعواناً.

وائتمرت قريش بمحمد ومشوا إلى أبي طالب مرة أخرى ومعهم عُمارة بن الوليد بن المُغيرة، وكان أنهدَ فتى في قريش وأجمله، وطلبوا إليه أن يتخذه ولداً ويُسلمهم محمداً ، فأبى ومضى محمد في دعوته ومضت قريش في ائتمارها.

وفي المستوى الأخلاقي والشرعي إعداداً وتربية ....
وفي المستوى النفسي والفكري إعداداً وتربية ...
في كل هذه المستويات تقف أمة الإسلام ــ وفي طليعتها علي ﷺ ــ وليس لها كلها إلا مفتاح شخصية واحد ... هو مفتاح تكاملية الأخلاق والعقيدة وتوازنها وانسجامها ، بحيث تقدم ــ في النهاية ــ المسلم صاحب السلوك القويم الرشيد ...
ومن هنا ... فلا غرابة أن تتعدد مناقب علي ... لا لشيء إلا لأن عليًّا كان مسلماً حقًّا ... وكان نموذجاً لتربية النبوة في محتضن النبوة .. طفلاً وفتى وشاباً .. أي كان صورة مصغرة من أخلاق تلك القمة السامقة التي عرفتها البشرية .. ممثلة في خاتم الأنبياء وإمامهم محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام).

* * * *

وحين يحدثنا ابن حجر العسقلاني الحافظ في "الإصابة" أن مناقب علي كثيرة لدرجة أن الإمام أحمد بن حنبل ﷺ لم ينقل لأحد من الصحابة ما نقل لعلي من المناقب، فإننا لا يجوز أن نعجب ... لأن عليًّا مجرد رَشْح للتربية النبوية .. ينضح بكل ما فيها من خير.. كما ترشح الورقة الشفافة بكل ما في الورقة الأصلية من كلام .
وفي هذا المعنى نفسه يقول الفقيه الأندلسي الكبير (الحافظ ابن عبد البر) في كتابه "الاستيعاب" : "وفضائل علي لا يحيط بها كتاب" .
وأكبر درة تقدم في منظومة المناقب التي لا يحيط بها كتاب لهذا الخليفة الراشد .. وهي تؤكد كل التأكيد ، ما ذكرناه من أثر بيت النبوة فيه، وتكشف عن جماع أخلاقه..هي استحقاقه مؤاخاة الرسول ﷺ له ... ويروى ابن عمر ذلك في قوله : "آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه حتى بقى علي .. وكان رجلاً شجاعاً ماضياً على أمره إذا أراد شيئاً .. فقال رسول الله ﷺ : "أما ترضى أن أكون أخاك" .. قال : بلى يا رسول الله، رضيت.. قال : "فأنت أخي في الدنيا والآخرة"!!
وعن علي ﷺ أنه كان يقول : أنا عبد الله وأخو رسوله لا يقولها أحد غيري إلا كذاب !!

وكان الرسول ﷺ ـ كما أخرج الشيخان ـ يقول لعلي : "أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي" ...

وقد أعطى النبي ﷺ يوم "خيبر" الراية لعلي، بعد أن بعث بها قبله أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ فلم يتمكنا من فتح حصون اليهود "بخيبر" قال ابن إسحاق : بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق ﷺ برايته إلى بعض خيبر فقاتل فرجع ولم يك فتح، وقد جهد، ثم بعث الغد عمر بن الخطاب فقاتل ثم رجع ولم يك فتح، وقد جهد ، فقال رسول الله ﷺ : "لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه، ليس بفرار"، فتشوف لهذا المقام الكريم أصحاب النبي ﷺ، بيد أنه آثر بها عليًّا ـ رضوان الله عليه ـ وكان علي أرمد فتفل النبي ﷺ في عينه، ثم قال : خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك .

وعن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال : جئنا مع علي بن أبي طالب ﷺ ، حين بعثه رسول الله ﷺ برايته ، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم ، فضربه رجل من يهود ، فطاح ترسه من يده، فتناول عليّ (عليه السلام) باباً كان عند الحصن فترس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ ، فلقد رأيتني في نفر سبعة معي ، أنا ثامنهم، نجهد على أن نقلب ذلك الباب ، فما نقلبه (١) .

وروى الإمام مسلم في صحيحه أن فأرسل يُدْعى مرحباً خرج من حصون اليهود يوم "خيبر" فنادى في المسلمين : من يبارز؟ وهو ينشد :

قد علمت "خيبر" أني مرحب    شاكي السلاح بطل مُجرّبُ
أطعن أحياناً وحيناً أضرب    إذا الليوث أقبلت تُحرَّبُ

فخرج له علي بن أبي طالب ﷺ، ففتك به .

وما ذكرنا في المناقب السابقة .. يدخل في باب واحد نريد أن ندلف منه إلى بيان شمائله في صورة مجملة مستقاة من واقع تاريخه، فابن عمر يبين أسباب أخوة الرسول لعلي .. فيركزها في سبب

---

(١) انظر : سيرة ابن هشام ٢٥١/٣، ٢٥٢.

واحد، ليس لأنه ابن عم رسول الله ﷺ ... بل لأنه "شجاع ماض على أمره" ...

ولهذا استحق أن يكون من الرسول بمنزلة هارون من موسى ... واستحق أن يدعو له ألا يؤذيه حر الصيف ولا برد الشتاء ... ولأنه شجاع "ليس بفرار" استحق حب الله ورسوله ... واستحق أن يأخذ الراية يوم "خيبر" ... بينما كان يتشوف لها كثير من الصحابة ...!!.

* * * *

فالشجاعة ـ بحق ـ صفة أصيلة في علي ... وهي صفة واضحة ... كادت لبروزها تطغى على الصفات الأخرى .

وما يفعل الباحثون ... وهم يرون علي بن أبي طالب يتقدم يوم (الخندق) لمنازلة "عمرو بن عبد ود" الذي كان يعده العرب بألف ...

بينما لم يكن علي قد جاوز سن الصبا إلا بسنوات قليلة .. لدرجة أن الرسول ﷺ منعه مرتين من الاستجابة لنداء "عمرو بن ود" بالمبارزة !!

روى ابن إسحاق أن "عمرو بن ود" وكان قد قاتل يوم "بدر" حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد أحداً ـ خرج مُعْلِماً يوم "الخندق" فلما وقف هو وخيله نادى في المسلمين : من يبارز؟ فبرز له علي بن أبي طالب فقال له : يا عمرو إنك قد كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلّتين إلا أخذت منه إحداهما ، قال : أجل ، قال علي : فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام، قال عمرو : لا حاجة لي بذلك، قال علي : فإني أدعوك إلى النزال ، فقال عمرو: لم يا ابن أخي؟ فوالله ما أحب أن أقتلك ، فقال له عليّ : لكني والله أحب أن أقتلك ، فغضب عمرو عند ذلك، وأقبل على علي فتنازلا فقتله عليّ ﷺ [1].

وماذا يفعل الباحثون وهم يرون عليًا لم يهزم أمام أحد قط؟

وما كان فوز معاوية في آخر الأمر فوز حرب وجيش وإنما كان فوز سياسة ودهاء!!

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام ٣/١٦١.

وفي بدر كان علي أحد ثلاثة قدمهم النبي الكريم للمبارزة ، ولم يمهل خصمه بالرغم من حداثة سنة فأجهز عليه !!

حيث ذكر مؤرخو السيرة أنه برز من المشركين يوم "بدر" عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة، فخرج للقائهم فتية من الأنصار ، فنادوا : يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا، وقيل: إن الرسول ﷺ نفسه هو الذي استرجع أولئك الأنصار؛ رغبة منه أن تكون عشيرته أول من يواجه العدو في مثل هذا الموقف، فقال : قم يا عبيدة بن الحارث ، قم يا حمزة، قم يا عليّ، فبارز عبيدة عتبة، وبارز حمزة شيبة، وبارز علي الوليد، فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله، وكذلك فعل علي مع خصمه، وأما عبيدة وعتبة، فقد جرح كلاهما الآخر، فكر حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فأجهزا عليه، واحتملا صاحبهما فجاءوا به إلى رسول الله ﷺ فأفرشه الرسول قدمه فوضع خده على قدمه الشريف، وقال : يا رسول الله لو رآني أبو طالب لعلم أني أحق بقوله :

وتسلمه حتى نُصرع دونه ونذهل عن أبنائنا والحلائل

ثم أسلم الروح (١) .

وفي "خيبر" وقع اختيار الرسول ﷺ عليه ... ليعطيه الراية كما ذكرنا وقد فتحها الله على يديه.

وعندما شكا بعضهم عليًّا إلى رسول الله ﷺ خطبهم الرسول فقال : "أيها الناس ... لا تشكو عليًّا فوالله إنه لجيش في ذات الل"ه !!

ولم تكن شجاعة علي منفصلة في أي موقف عن خلق الفروسية التي رفعها الإسلام وأعلى من شأنها ... فمع ثقته في قوته الذاتية لم يبدأ أحدا بقتال .... وكان ينصح ابنه الحسن بقوله: "لا تدع إلى المبارزة، فإذا دعيت إليها فأجب؛ فإن الداعي إليها باغ، والباغي مصروع".

وفي موقعتي (الجمل وصفين) لم يكن على البادئ فيهما .. ولا في غيرهما .. بل إنه كان يمنع جنده من الإجهاز على جريح .. أو إرهاب من المعركة ... وكان يمنعهم من أن يسلبوا مالاً أو ينتهكوا حرمة ... وكان لا يحارب غيلة؛ وإنما كان يحارب حرباً واضحة بعد أن يستنفد كل وسائل المسالمة.

---

(١) انظر : السابق ٢/٤٦٥، ٤٦٦.

لقد كان يعز على الإمام علي ﷺ أن يقاتل المسلمون بعضهم بعضاً، فأقام ثلاثة أيام قبل موقعة (الجمل) ورسله تتردد على أهل البصرة يدعوهم إلى الرجوع إلى الطاعة والدخول في الجماعة؛ ولكنهم لم يستجيبوا لندائه، فزحف بقواته لخوض المعركة في (١٠من جمادى الآخرة) فلما دنت صفوفه من صفوف خصومه، وهم وقوف تحت رايتهم العظيمة، وعائشة في هودجها في المقدمة قد كسي بصفائح الحديد والدروع ، دعا القوم إلى الصلح وناشدهم حقن الدماء، ولكنهم أصروا على الحرب ، فطلب علي من طلحة والزبيرة أن يدنوا منه ليتحدث إليهما، فدنوا منه حتى اختلفت أعناق فرسيهما، فذكر طلحة والزبيرة بأنهم إخوة في الإسلام يحرمان دمه ويحرم دمهما، ثم سألهما عن السبب في تحولهما عن الإخاء فأجابه طلحة بأن مرجع ذلك أنه ألّب على عثمان، وأنه إذا كان قد بايع عليًّا فلأنه بايعه مكرهاً والسيف على عنقه، ثم ذكر علي الزبير بأمور جرت في حياة رسول الله عندما قال ﷺ موجهاً حديثه للزبير بعد أن رآهما يحبان بعضهما بعضاً : "أما إنك تقاتله وأنت ظالم له" ، فلما ذكره علي بذلك أبدى الزبير أسفه وأقسم ألا يقاتل عليًّا أبداً، ثم انصرف إلى أصحابه وهو ينوي اعتزال المعركة؛ ولكن ابنه ـــ في رواية ـــ عبد الله أثناه عن ذلك واتهمه بالجبن عندما رأى رايات ابن أبي طالب، فأحفظه هذا الاتهام، وكفر عن يمينه لعلي بأن أعتق غلامه مكحولاً، ومع ذلك فقد ترك المعركة منذ بدايتها و لم يستطع أن يواصل القتال، وقيل: إن الزبير أقبل إلى ولده عبد الله فأفضى إليه برغبته في الانصراف من المعركة ، ودعا ولده إلى الانصراف معه، فأبى عبد الله أن يرجع حتى يحكم الله بين الفريقين، فتركه الزبير ومضى نحو البصرة، وقد عقد النية على العودة إلى الحجاز ، وقدّر له أين يلقى مصرعه ، كما قدر لابنه عبد الله أن يتلقى من الجراح والطعنات (٣٧) جرحاً ما بين طعنة ورمية ، ويجمع مؤرخو العرب على أن الزبير قتل غدراً بوادي السباع، استدبره عمرو بن جرموز أحد أتباع الأحنف بن قيس، ثم طعنه وقتله، أما طلحة فقد أصابه سهم غَرَب فأصابه، فاعتزل المعركة وهو جريح ينزف، ونزل في دار خربة وظل ينزف حتى مات، وقيل: طعنه مروان بن الحكم بعد أن أيقن بالهزيمة (١).

---

(١)انظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢٤٣/٣، ٢٤٤، د/ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية، ص: ٣١١ ـــ ٣١٣.

كان علي يعرف العدو عدواً حينما يرفع السيف لقتاله؛ ولكنه لا يعادي امرأة ولا رجلاً مولياً ولا جريحاً عاجزاً عن قتال، ولا ميتاً ذهبت حياته في سبيل حروبه؛ بل لعله يذكر له ماضيه يومئذ، فيقف على قبره ليبكيه ويرثيه ويصلي عليه، وهذه الفروسية هي التي بغضت إليه أن ينال أعداءه بالسباب، وليس من دأب الفارس أن ينال أعداءه بغير الحسام، فلما سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حروبهم بصفين قال لهم : "إني أكره أن تكونوا سبابين ولكنكم لو وصفتم أعمالكم وذكرتم رجالهم كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبكم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوى عن الغي والعدوان من لهج به".

وقد أثرت البيئة العربية التي تحيط بعلي في طباعه وسلوكه؛ فقد كان ذا قلب شديد وجسد قوي، وعزم نافذ تخشى لقاءه الأبطال، بحيث إنه ما حمل على صف إلا أرجعه ، وما دخل في زحف إلا فرقه.... لكنه مع ذلك كله ــ ما ترك لنفسه عنان الغضب ... يقودها .. ولا تقوده ... ولا ترك لانفعالات أصحابه وتابعيه أن تمثل أو تقسو أو تغدر أو تنسى المروءة العربية ... والأخلاق الإسلامية في الحروب ... بل كان يضرب لهم المثل الأعلى في الفروسية ... فيصلي على قتلى أعدائه ويطلب لهم الغفران .. كما حدث في موقعة (الجمل) ...

قيل : إن عدة القتلى يوم (الجمل) بلغت نحو عشرة آلاف نصفهم من أصحاب علي، ونصفهم من أصحاب عائشة، يقول سيف بن عمر الأسدي مبينا سيرة علي في دفن القتلى دون تمييز بين شيعته وأنصار عائشة، ومقدار توجعه عليهم :

"وأقام علي بن أبي طالب في عسكره ثلاثة أيام لا يدخل البصرة، وندب الناس إلى موتاهم، فخرجوا إليهم فدفنوهم، فطاف علي معهم في القتلى، فلما أتى بكعب بن سُور قال : زعمتم أنما خرج معهم السفهاء، وهذا الحبر قد ترون. وأتى على عبد الرحمن بن عتاب فقال : هذا يعسوب القوم ــ يقول الذي كانوا يُطيفون به ــ يعني أنهم قد كانوا اجتمعوا عليه، ورضوا به لصلاتهم، وجعل علي كلما مرّ برجل فيه خير قال : زعم من زعم أنه لم يخرج إلينا إلا الغوغاء، هذا العابد المجتهد، وصلى على

قتلاهم من أهل البصرة، وعلى قتلاهم من أهل الكوفة، وصلى على قريش من هؤلاء وهؤلاء، فكانوا مدنيين ومكيين، ودفن علي الأطراف في قبر عظيم، وجمع ما كان في العسكر من شيء، ثم بعث به إلى مسجد البصرة، أن من عرف شيئاً فليأخذه، إلا سلاحاً كان في الخزائن عليه سمة السلطان، فإنه لما بقي لم يعرف، خذوا ما أجلبوا به عليكم من مال الله عز وجل، لا يحل لمسلم من مال المسلم المتوفى شيء، وإنما كان ذلك السلاح في أيديهم من غير تنفيل من السلطان" (١) .

ويقول سيف بن عمر في وصف الآداب العالية التي اتسمت بها فروسية الإمام علي يوم (الجمل) : كان من سيرة علي ألا يقتل مدبراً ولا يُذفف على جريح، ولا يكشف ستراً، ولا يأخذ مالاً، فقال قوم يومئذ : كيف يُحلّ لنا دماءهم، ويُحرم علينا أموالهم؟ فقال علي : القوم أمثالكم، من صفح عنا فهو منا، ونحن منه، ومن لج حتى يصاب فقتاله مني على الصدر والنحر، وإن لكم في خمسه لغنى، فيومئذ تكلمت الخوارج (٢).

وحين ظفر عليٌّ بألد أعدائه وهم (عبد الله بن الزبير، ومروان بن الحكم، وسعيد بن العاص) عفا عنهم وأحسن إليهم وأبى على جنده أن يتتبعوهم بأذى .

وأما عمرو بن العاص الذي عرف في علي ذلك الخلق ... فقد استغله لصالحه أيما استغلال حين سقط أمامه في صفين ، وكانت ضربة واحدة من علي تقضي عليه .. إلا أنه سرعان ما كشف عن سوءته ... فأشاح علي بوجهه عنه ...

وفي (صفين) أيضاً وعلى ما كان بينه وبين معاوية وجنوده من اللدد والعداء لم يكن ينازلهم ولا يأخذ من ثاراته وثارات أصحابه عندهم إلا بمقدار ما استحقوه في موقف الساعة، فاتفق في يوم صفين أن خرج من أصحاب معاوية رجل يسمى "كريز بن الصباح الحميري" فصاح بين الصفين : من يبارز؟ فخرج إليه رجل من أصحاب علي فقتله ووقف عليه ينادي : من يبارز؟ ... فخرج إليه آخر فقتله وألقاه على الأول ... ثم نادى : من يبارز؟ .... فخرج إليه ثالث ... فصنع به صنيعه

(١) انظر: سيف بن عمر الأسدي : الفتنة ووقعة الجمل ، جمع وتصنيف أحمد راتب عرموش ، ص: ١٧٨.

(٢) انظر : السابق ، ص: ١٨١.

بصاحبيه ، ثم نادى رابعة: من يبارز؟ .. فأحجم الناس ورجع من كان في الصف الأول إلى الصف الذي يليه ... وخاف علي أن يشيع الرعب بين صفوفه فخرج على ذلك الرجل المدل بشجاعته وبأسه فصرعه ... ثم نادى نداءه حتى أتم ثلاثة ... صنع به صنيعه بأصحابه، ثم قال مسمعاً الصفوف : يا أيها الناس ، إن الله عز وجل يقول : الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص، ولو لم تبدأونا ما بدأناكم، ثم رجع إلى مكانه ...

وفي الموقعة ذاتها تتجلى أخلاق علي في الفروسية حينما حاول معاوية وجماعته أن يميتوا عليًّا وأصحابه عطشاً بمنعهم من ورود الماء ... وهم يقولون له : "ولا قطرة حتى تموت عطشاً"... ولكنه لما حمل عليهم وأجلاهم عن الماء أتاح لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده، مع أن ذلك كان له تأثير خطير على نتيجة المعركة.

* * * *

أجل .. لقد كان علي ﷺ شجاعاً، وكان جنديًّا تتوافر له كل مقومات الجندي، من سلامة الجسم والعقل والإيمان ... فضلاً عن أخلاق الفروسية التي تجلت فيه على نحو مثير وغريب ...

لكن بقي أن كل ذلك ليس إلا بعض أخلاق علي ... وليس إلا جزءاً من مفتاح شخصيته .. أما جماع أخلاقه .. وأما المفتاح الصحيح لشخصيته فهو أنه كان كما أسلفنا مؤمناً صادقاً اليقين تربى في بيت النبوة وحمل بصماتها في كل مسلك يسلكه، أو خلجة تختلج بها نفسه أو كلمة ينطق بها لسانه ...

لقد كان بحق مؤمناً راشداً ... ونموذجاً لتربية محمد (عليه الصلاة والسلام) وكفاه بهذا شرفاً...

* * * *

## لولا علي هلك عمر!!

لقد كان هذا الجيل العظيم النادر ... ممن وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله : { أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً} (١)... فلم يكن صحابة رسول الله ﷺ طلاب دنيا ... ولا ممن يجرون وراء المناصب أو كراسي الحكم كما يفعل الثوريون الانقلابيون وأبناء الملوك الذين يقتل بعضهم بعضاً بغية أعراض زائلة ... بل كانوا رهباناً بالليل وفرساناً بالنهار ... تلقي العلم والتفقه في الدين بغيتهم ، وصوم النهار وقيام الليل غايتهم ... والجهاد في سبيل الله أسمى أمانيهم ...

وإنما لعقول سقيمة ... وأفئدة مريضة ... تلك التي تهبط بهذا الجيل إلى الهاوية والسقوط .. فتجرده من هذه المعاني السامية ... وتلك المثل العليا ... وتشككه في قرآنه .. وكأن هذه الفئة لم تقرا و لم تع قوله تعالى:{ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} (٢)، وقوله تعالى : { لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ} (٣) .

... يوشرح الأستاذ العقاد السلوك القرآني المتحكم في علي فيقول : "ولنا أن نقول إنه كان ﷺ يتتلمذ للقرآن الكريم، ويستوحيه نصًّا في عرفان إسلامه وتعزيز إيمانه، فكانت نظرته إلى الخلق والخالق نظرة قرآنية يبتكر فيها ما شاء ابتكار التلميذ في الحكاية عن الأستاذ ... ونحن لا نستغرب ابتداءً هذا النمط من النظر الفلسفي على نحو من الأنحاء في عصر الإمام علي ﷺ ؛ لأنه كان عهدا نبتت فيه أصول الفرق الإسلامية جميعاً من الخوارج والشيعة والقائلين بالرجعة وتناسخ الأرواح والمجتهدين في قراءة القرآن وتفسيره على شتى المذاهب، فأقرب شيء إلى المعقول أن يكون إمام العصر كله قدوة في الاجتهاد والنظر وعنواناً للنوازع التي تفرقت بين أهل زمانه وتعبيراً صادقاً لتفكيره ووعيه" (٤).

---

(١) الفتح ، آية : ٢٩.

(٢) الفتح ، آية : ٢٩.

(٣) الأنفال ، آية : ٦٣.

(٤) ١

وقد غالى بعض أصحاب العقول المريضة الذين استبدت بهم العواطف الهائجة، وتمكنت منهم الأهواء المضللة وأعمتهم نظرتهم العصبية وبلغ بهم القصور العقلي والفكري ما جعلهم يضعون عليًّا في منزلة تعدل منزلة النبوة ... وهذا أحدهم وباسم التعصب الأعمى لعلي ذهب إلى أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم ينجح في تكوين هذا الجيل ... بل إنه (لم يقرر أن يجعل من الجيل الإسلامي الرائد الذي يضم المهاجرين والأنصار قيماً على الدعوة بعده ... لأنه لم يعبئه تعبئة رسالية وفكرية واسعة يستطيع أن يمسك بالنظرية بعمق، ويمارس التطبيق في ضوئها بوعي ويضع للمشاكل التي تواجهها الدعوة باستمرار حلولها النابعة من الرسالة ...

هكذا يقول السيد باقر الصدر في كتيبه الإنشائي الذي أطلق عليه اسم "التشيع ظاهرة طبيعية"، وهو يستمر في هرائه ويقول :

"بل إننا نلاحظ أكثر من ذلك أن الجيل المعاصر للرسول (ويلاحظ أنه لا يكتب أمام الرسول ﷺ عبارة ــ عليه الصلاة والسلام ــ وإنما يؤثر ها عليها) لم يكن يملك تصورات واضحة محددة حتى في مجال القضايا الدينية التي كان النبي يمارسها مئات المرات" .

* * * *

ويظن هؤلاء وأمثالهم من الغلاة أنهم بهذا يرفعون من أسهم علي ﷺ مع أنه حاشاه ــ أمام المقاييس الصحيحة ــ لا تعرف قيمة علي إلا ذا وزن بنظرائه من العظماء .. أي بجيل الراشدين كله ... أما أن يبدو الأمر ــ كما يريد هؤلاء الغلاة ــ وكأن عليًّا كان العظيم وحده ... فهذا شيء يقلل من أسهمه... لأن ارتفاع إنسان إلى مقام القيادة في مجموعة عظيمة ... أو شعب عظيم .. ليس كارتفاع إنسان في مجموعة جاهلة غير واعية ... كما يحدث في الشعوب المتخلفة؛ التي يترو عليها كل عشية عسكري غر أو انقلابي مأجور وهي لا تبدي حراكاً بل عليها أن تقوم (بالتصفيق الحاد) !! وكفى .

وعظمة علي ﷺ أنه كان في الصف الأول الذي لا يزيد على عشرة، وسط جيل عظيم من الصحابة بلغ عدده اثني عشر ألفاً ... فتحوا الدنيا وحطموا أكاسرة الظلم وقياصرة البغي ...

* * * *

وأي جيل هذا الذي يتحدث عنه هؤلاء ؟ إنه الجيل الذي تحدث عنه محمد بن عبد الله ﷺ ... الذي لا ينطق عن الهوى ... فقال فيما رواه الإمام البخاري عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال : "خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم" .

قال عمران بن حصين : (فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة) ، ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن .

صدق رسول الله ..

أليسوا "خير أمة أخرجت للناس" .

أليسوا الذين حفظوا القرآن حرفاً وشكلاً ؟

* * * *

والغريب أننا لم نسمع قبل وفاة الرسول أن خلافاً كان بين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي أبداً ..

فلماذا يا ترى حدث هذا الخلاف فجأة بموت الرسول ﷺ ؟

سيقول السفهاء من الناس : إنما الخلافة بعده ...

ونقول لهم : إنا وجدنا عمر هو الذي بايع أبا بكر وقد كان أولى به أن يطلبها لنفسه ... فمثل هذا المنصب (لعبيد الدنيا) لا يقبل التنازل، وقد كان في الإمكان أن يعيش أبو بكر أطول من عمر... فلا ينالها عمر أبداً .. ولو كان الأمر كذلك أيضاً لكان أولى بعمر ــ بدل أن يتركها شورى في ستة ــ أن يوصي بها لابنه عبد الله بن عمر ... وبعضهم اقترح عليه ذلك ... لكن عمر قال : بحسب آل الخطاب أن يليها واحد منهم، فإن كان خيراً فقد أصبنا منه ... وإن كان رزءاً قمنا بنصيبنا منه .

وقد عرضت الإمامة على (عبد الله بن عمر) نفسه فيمن عرضت عليه عند مقتل عثمان فهرب منها ...

فهذا الجيل الفذ الفريد في كتاب البشرية كان يعتبر أمثال هذه المناصب رزءاً ... وعبئاً .. وتكليفاً ... لا تشريفاً .. وكان يهرب منها ... مثل ما كان بعده بأجيال أبو حنيفة يهرب من القضاء!!

ولعل هذا الموقف من هذا الجيل الفريد كان استجابة لتحذير النبي ﷺ من التطلع إلى الإمارة والتشوف إلى تقلد منصب من المناصب أو ولاية من الولايات؛ فعن النبي ﷺ أنه قال لعبد الرحمن بن سمرة : "يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة ، فإنك إن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها" (١) .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : "إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرضعة وبئست الفاطمة" (٢).

وقال رسول الله ﷺ : "من جُعل قاضياً بين الناس فقد ذبح بغير سكين" (٣).

وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : "ما من رجلٍ يلي أمر عشرة فما فوق ذلك إلا أتى الله عز وجل يوم القيامة يده إلى عنقه : فكه برُه أو أوبقه إثمه، أولها ملامة وأوسطها ندامة ، وآخرها خزي يوم القيامة" (٤) .

ولماذا نذهب بعيداً في بيان حقيقة هذا الجيل الذي لا يختلف عليه إلا مغرض صاحب هوى فاسد ... وعلى ابن أبي طالب نفسه ... بيّن في غير موضع وموقف حقيقة علاقته بهذا الجيل .. حين عامله في أشد ساعات الخلاف أفضل معاملة وأنبلها ... وحتى الخوارج .. وحتى الموتى من جيش معاوية ... كل هؤلاء ... نالوا من المعاملة الكريمة لعلي ما هم أهله.

أما علاقته بإخوته أبي بكر وعثمان ــ وهي بيت القصيد ــ فيوضحها علي أيضاً ... في مواقف متعددة ... أبرزها أنه عاش المستشار الأمين للخلفاء الراشدين قبله ... وكان عضدهم الأمين في كل أمر ... وليس هناك أدنى دليل على موقف مخالفة أو خروج على الجماعة ... وما مأخذه على عثمان إلا من باب الحب والولاء والحرص على عثمان، ولو كان يطوي جوانحه على شيء لما قام بنصح عثمان ولتركه يمشي وحده .. في الطريق الذي مشى فيه ... حتى انتهى إلى ما انتهى إليه ...

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه البخاري وأحمد.

(٣) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي .

(٤) أخرجه أحمد.

ولما أرسل إليه ابنيه الحسن والحسين ليقوما بحراسته ...

وفي ذلك يقول الأستاذ العقاد : "أعان عليٌّ أسلافه الثلاثة برأيه وعمله وجاملهم مجاملة الكريم بمسلكه ومقاله، ولم يبد منه قط ما ينم على كراهية وضغن مكتوم ... وأولى أن يقال : إن دلائل وفائه في حياتهم وبعد ذهابهم كانت أظهر من دلائل جفائه؛ فإنه احتضن ابن أبي بكر محمداً وكفله بالرعاية ورشحه للولاية ... وقد سمى ثلاثة من أبنائه بأسماء الخلفاء الذين سبقوه، وهم : أبو بكر وعمر وعثمان .

ويخطئ جدًّا من يتخذ فتواه في مقتل الهرمزان دليلاً على كراهيته لعمر أو نقمة منه في أبنائه... فقد أسرع عبيد الله بن عمر إلى الهرمزان، فقتله انتقاماً لأبيه، ولم ينتظر حكم ولي الأمر فيه ولا أن تقوم البينة القاطعة عليه، فلما استفتي في هذه القضية أفتى بالقصاص منه، ولم يغير رأيه حين تغير رأي عثمان، فأعفاه من جريرة عمله ... لأنه هو الرأي الذي استمده من حكم الشريعة كما اعتقده وتحراه، وبهذا الرأي دان قاتله عبد الرحمن بن ملجم، فأوصى وكرر الوصاية ألا يقتلوا أحداً غيره لمظنة المشاركة بينه وبين رفقائه في التآمر عليه" (١) .

وكانت له استشارات ونصائح عمل بها عمر ... واعتبرها يداً طولى .. حتى إنه قال في أخيه علي كلمته المشهورة : لولا علي لهلك عمر ...!!

فلماذا يا ترى يتوهم بعض الناس أشياء لا يؤيدها دليل صادق من وقائع التاريخ الصحيح؟!!

بل الغريب أن عليًّا كان يرفض الخلافة ... عندما رشحه عمر لها وأخذ يحرض طلحة على قبولها ... واضطر أمام رفض كل منهم للخلافة أن يخطب على المنبر ويعلن أن الخلافة حق الأمة تختار من تشاء : (إن هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلا من أمرتم) فكيف إذن كان يطوي صدره على شيء وهو يؤمن بأن الخلافة حق للأمة ..!!

وقد أورد السيوطي عن الإمام علي نصًّا مهمًّا ينبئ عن اعتقاد الإمام بأن الخلافة حق للأمة، وأن النبي ﷺ توفي دون أن يعهد لأحد بالأمر من بعده، لا لعلي ولا لغيره، كما يكشف عن مساندة

---

(١) عباس محمود العقاد، عبقرية الإمام ، ص: ١١٠.

علي للخلفاء الثلاثة قبله وإخلاصه النصيحة لهم؛ فعن الحسن بن علي قال : "لما قدم عليٌّ البصرة قام إليه ابن الكواء، وقيسُ بن عباد، فقالا له : ألا تخبرنا عن مسيرك هذا الذي سرت فيه تتولى على الأمة تضرب بعضهم ببعض؟ أعهد من رسول الله ﷺ عهده إليك؟ فحدثنا فأنت الموثوق المأمون على ما سمعت، فقال : أما أن يكون عندي عهد من النبي (عليه الصلاة والسلام) في ذلك فلا، والله لئن كنت أول من صدق به فلا أكون أول من كذب عليه، ولو كان عندي من النبي (عليه الصلاة والسلام) عهد في ذلك ما تركت أخا بني تيم بن مرة [1] ، وعمر بن الخطاب يقومان على منبره، ولقاتلتهما بيدي، ولو لم أجد إلا بردي هذا، ولكنَّ رسول الله ﷺ لم يقتل قتلا، و لم يمت فجأة؛ مكث في مرضه أياماً وليالي، يأتيه المؤمن فيؤذنه بالصلاة، فيأمر أبا بكر فيصلي بالناس، وهو يرى مكاني. ولقد أرادت امرأة من نسائه أن تصرفه عن أبي بكر، فأبى وغضب، وقال : أنتن صواحب يوسف، مُرُوا أبا بكر يُصلي بالناس، فلما قبض الله نبيه ﷺ نظرنا في أمورنا ، فاخترنا لدنيانا من رضيه نبي الله ﷺ لديننا. وكانت الصلاة أصل الإسلام، وهي أمير الدين، وقوام الدين، فبايعنا أبا بكر، وكان لذلك أهلاً، لم يختلف عليه منا اثنان، و لم يشهد بعضنا على بعض، و لم تقطع منه البراءة، فأديت إلى أبي بكر حقه، وعرفت له طاعته، وغزوت معه في جنوده وكنت آخذ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني، وأضرب بين يديه الحدود بسوطي، فلما قبض تولاها عمر، فأخذها بسنة صاحبه، وما يعرف من أمره، فبايعنا عمر، و لم يختلف عليه منا اثنان، و لم يشهد بعضنا على بعض، و لم تقطع منه البراءة، فأديت إلى عمر حقه، وعرفت له طاعته، وغزوت معه في جيوشه، وكنت آخذ إذا أعطاني ، وأغزو إذا أغزاني، وأضرب بين يديه الحدود بسوطي ، فلما قبض تذكرت في نفسي قرابتي وسابقتي وسالفتي وفضلي، وأني أظن أن لا يعدل بي ولكن خشي أن لا يعمل الخليفة بعده ذنباً إلا لحقه في قبره، فأخرج منها نفسه وولده، ولو كانت محاباة منه آثر بها ولده، فبرئ منها إلى رهط من قريش ستة أنا أحدهم ، فلما اجتمع الرهط ظننت أن لا يعدلوا بي ، فأخذ عبد الرحمن بن عوف مواثيقنا على أن نسمع ونطيع لمن ولاه الله أمرنا، ثم أخذ بيد عثمان بن عفان، وضرب بيده

(١) يريد أبا بكر الصديق ﷺ.

على يده ، فنظرت في أمري، فإذا طاعتي قد سبقت بيعتي، وإذا ميثاقي قد أخذ لغيري، فبايعنا عثمان، فأديت له حقه، وعرفت له طاعته، وغزوت معه في جيوشه، وكنت آخذ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني وأضرب بين يديه الحدود بسوطي، فلما أصيب نظرت في أمري، فإذا الخليفتان اللذان أخذاها بعهد رسول الله ﷺ إليهما بالصلاة قد مضيا، وهذا الذي قد أخذ له الميثاق قد أصيب؛ فبايعني أهلُ الحرمين، وأهل هذين المصرين، فوثب فيها من ليس مثلي ولا قرابتُهُ كقرابتي، ولا علمه كعلمي، ولا سابقته كسابقتي، وكنت أحق بها منه" (١).

وقد تواتر عن علي كرم الله وجهه أنه كان يقول على منبر الكوفة : (خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر) ـــ روى عنه هذا ـــ كما يقول السيد محب الدين الخطيب ، من أكثر من ثمانين وجهاً رواه البخاري وغيره، ولا يوجد تاريخ في الدنيا لا تاريخ الإسكندر ولا تاريخ نابليون ـــ صحت أخباره كصحة هذا القول .

وكان يقول أيضاً : (لا أوتى بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا ضربته حد المفترى)؛ ولهذا كان الشيعة المتقدمون ـــ الذين لسوا باطنية ـــ متفقين على تفضيل أبي بكر وعمر.

وقد بلغ التقدير والحب من علي لسابقيه في الخلافة أن سمى بعض أبنائه بأسمائهم .... بعد الحسن والحسين ومحمد ابن الحنفية ، كان أبناء علي هم : أبو بكر وعمر وعثمان ... كما أن أم كلثوم الكبرى بنت علي ... كانت زوجة لعمر بن الخطاب !!

فأي جيل هذا الذي يتحدثون عنه؟ إنهم ـــ حقيقة ـــ من سفحهم المعن في هبوطه ... لا يستطيعون ... حتى أن يتخيلوه في سموقه ... إنه جيل فريد فذ ـــ رضي الله عنهم ورضوا عنه ـــ ولا نامت أعين الخبثاء !!..

* * * *

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص: ٢٠٩ ـــ ٢١١.

## بين علي وعثمان وعبد الرحمن بن عوف

تولى عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية الخلافة بعد استشهاد عمر بن الخطاب ـــ رضي الله عنهما ـــ أواخر ذي الحجة سنة (٢٣هـ) ، وكان عمر بن الخطاب قد وضع قبيل وفاته طريقة لاختيار من يخلفه في منصب الخلافة؛ إذ لم يكن ثمة قاعدة ثابتة أو نظام مستقر لشغل منصب الخلافة؛ بل كان اختيار الخليفة يخضع للاجتهاد وتبادل الآراء ووجهات النظر؛ بغية اختيار أنسب من يصلح لهذا المنصب الخطير من جماعة المسلمين، وقد أطال عمر التفكير في أمر الخلافة بعده وهو على فراش الموت، فأشار عليه البعض بأن يعهد بالخلافة إلى شخص بعينه، فرفض عمر قائلاً : "إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني، أبو بكر، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني، رسول الله ﷺ" .

وقد انتهى عمر بن الخطاب بعد تفكير عميق إلى أن يجعل الأمر شورى بين ستة من كبار الصحابة شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة، وتوفي وهو راض عنهم، وهم عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، رضي الله عنهم .

وكان طلحة غائباً عن المدينة ، فلما قدموا عليه خاطبهم موضحاً الأسباب التي حملته على اختيارهم لتكون الخلافة في أحدهم، فقال : "إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض، إني لا أخاف عليكم إن استقمتم، ولكني أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم، فيختلف الناس، فانهضوا على حجرة عائشة بإذن منها، فاختاروا رجلاً منكم ... فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام، وليصل بالناس صهيب، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم" . ثم أوصى عمر المرشحين الستة بأن يحسن من يقع عليه الاختيار إلى الأنصار، فهم الذين تبوأوا الدار والإيمان فيحسن إلى محسنهم ، ويعفو عن مسيئهم.

وأمر عمر بن الخطاب كذلك بأن يحضر اجتماعات المشاورة شيوخ الأنصار؛ إذ لا خوف منهم أن ينازعوهم الأمر، وأن يحضر معهم كذلك الحسن بن علي وعبد الله بن عباس، وأخيراً أوصى عمر بأن يحضر ابنه عبد الله مستشاراً دون أن يكون له من الأمر شيء، فوجوده ليس إلا عامل ترجيح؛

إذ أوصاه عمر بأن يكون مع الأكثرية إذا اختلف القوم، أو مع الحزب الذي يكون فيه عبد الرحمن بن عوف إذا تساوى أهل الشورى ثلاثة ثلاثة .

ولما توفي عمر اجتمع أهل الشورى، فتشاوروا ثلاثة أيام دون أن يصلوا إلى نتيجة، فاقترح عبد الرحمن بن عوف عليهم أن يتنازل عن حقه في الترشيح على أن يتولى هو أمرهم، فوافقوا.

ثم بدأ عبد الرحمن بن عوف يختلي بأهل الشورى واحداً واحداً، وظهر بعد اتصالاته بهم أن أهل الشورى قد حصروا الاختيار في شخصي علي وعثمان، فقد اختار الزبير عليًّا ، واختار طلحة عثمان، وامتنع سعد عن الاختيار تاركاً أمره إلى عبد الرحمن بن عوف ، وهكذا انقسم أهل الشورى إلى فريقين : فريق يؤيد عثمان وفريق يؤيد عليًّا .

والواقع أن عبد الرحمن بن عوف لم يأل جهداً في اختيار من يصلح للخلافة حين انحصر الترشيح في علي وعثمان، فأمضى أياماً وليالي يستطلع آراء الناس ويسألهم عمن يرضونه خليفة لهم، فوجد أن أكثر الناس يميلون إلى عثمان ويؤثرونه على علي .

فلما رأى اتفاق الناس واجتماعهم على عثمان عاد إلى المسجد وعاود اتصاله من هناك بكل من علي وعثمان على انفراد حتى الصباح، ثم أدى الجميع صلاة الصبح، وعلى أثر ذلك جمع عبد الرحمن الرهط وبعث إلى المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار وأمراء الأجناد، فاجتمعوا في المسجد وبدأوا يتناقشون فيما بينهم فيمن يختارونه، واحتدم النقاش فنصح سعد بن أبي وقاص عبد الرحمن بن عوف أن ينهي الموضوع قبل أن يفتتن الناس، فأعلن عبد الرحمن اختياره، فقال : "إني قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا" ، ثم دعا عليًّا وقال له : "عليك عهد الله وميثاقه، لتعملن بكتاب الله وسنّة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده" فأجابه بالقبول، ثم دعا بعثمان وأوصاه بمثل ما أوصي به علياً فقبل ، ثم رفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان، وقال : "اللهم اسمع واشهد، اللهم إني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان" فبايعه، فازدحم الناس يبايعون عثمان حتى غشوه عند المنبر، فقعد عبد الرحمن مقعد النبي من المنبر، وأقعد عثمان على الدرجة الثانية ، فأخذ الناس يبايعونه.

وقد استند الناس في إيثارهم عثمان بن عفان بالخلافة إلى عدة أسباب منها: سابقته في الإسلام، وإصهاره إلى النبي ﷺ في ابنتيه رقية ثم أم كلثوم، ولهجرته مع المهاجرين الأولين إلى الحبشة، ولما عُرف به من لين وسماحة بعد شدة عمر بن الخطاب ﷺ ، فضلاً عن خوفهم من تحول الخلافة إلى نظام وراثي في بني هاشم لا تخرج منهم أبداً إذا بويع بها علي بن أبي طالب ...

وقد اتهم عبد الرحمن بن عوف ـــ وهو صهر عثمان ؛ حيث كان قد تزوج أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط أخت عثمان لأمه ـــ بمحاباة عثمان وافتئاته على حق علي في الخلافة حين آثر بها عثمان، وهي دعوى لا أساس لها من الصحة ولا من الواقع التاريخي، فقد كان القوم أتقى لله وأحرص على الأمة، وأكرم على نفوسهم مما يتصوره هؤلاء الباحثون .

وقد كان بوسع عبد الرحمن بن عوف ﷺ ألا يخرج نفسه من أصحاب الشورى ليختار لهم بعد مشاورة الأمة التي ظل يعانيها ثلاثة أيام لم يكتحل فيها بنوم، ولو فعل ذلك لأنجى نفسه من مثل ذلك الاتهام، ولربما ـــ لو لم يُخرج نفسه ـــ يقع عليه اختيار بقية أصحابه ليكون الخليفة المنتظر .

ولو أراد ابن عوف أن يحابي أحداً لحابى ابن عمه سعد بن أبي وقاص الزهري، فهو أقرب إليه من عثمان؛ ولكنه شاور الناس، فما وجدهم يعدلون أحداً بعثمان، ثم علي (رضي الله عنهما)، مع تفضيل أكثرهم عثمان؛ لما فيه من لين وسماحة بعد شدة عمر ﷺ .

والحق الذي لا مرية فيه أن عثمان لم يصر خليفة إلا باختيار الأمة، ورضاهم واتفاقها عليه، وليس بمجرد تقديم عبد الرحمن بن عوف له، وفي ذلك يقول الإمام أحمد : "ما كان في القوم من بيعة عثمان كانت بإجماعهم ... وإلا لو قدر أن عبد الرحمن بايعه و لم يبايعه علي ولا غيره من الصحابة أهل الشوكة لم يصر إماماً".

ويضيف الإمام أحمد: "وأقام عبد الرحمن ثلاثاً حلف أنه لم يغتمض فيها بكبير نوم يشاور السابقين الأولين والتابعين لهم بإحسان، ويشاور أمراء الأنصار ... فأشار عليه المسلمون بولاية عثمان، وذكر أنهم كلهم قدموا عثمان فقدموه، لا عن رغبة أعطاهم إياها، ولا عن رهبة أخافهم بها" .

وثمة روايات ضعيفة تزعم أن عليًّا تلكأ في بيعة عثمان لاعتراضه عليها، فذكره

عبد الرحمن بن عوف بعهده الذي قطعه على نفسه وقال له : "ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً" ، فعند ذلك بادر علي إلى مبايعة عثمان.

وهي روايات ضعيفة كما قدمنا، والصواب الذي تطمئن إليه النفس، ونجده منسجماً مع شخصية علي بن أبي طالب وأخلاقه النبيلة أنه كان — كما يذكر ابن كثير — أول من بايع عثمان بالخلافة من أهل الشورى، ويستبعد ابن كثير الروايات التي قيلت في احتجاجه على انتخاب عثمان[١] .

* * * *

---

(١) راجع فيما تقدم : تاريخ الطبري ٣٤/٥، وما بعدها، الكامل لابن الأثير ٦٨/٣، وما بعدها، تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص:١٨١، ١٨٢، النظريات السياسية الإسلامية لمحمد ضياء الدين الريس، ص: ٢٤١، د/ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية، صك ٢٧٣، وما بعدها، د/حمدي شاهين : الدولة والمجتمع في العصر الأموي، ص:٥٤.

## علي في خلافة عثمان

كان من الطبيعي وفي ظل المجتمع الإسلامي المفتوح الذي يسمح بالنقد ولا يجد في ذلك حرجاً، ولو كان النقد موجهاً لكبار المسئولين على غرار ما كان يحدث في عهد عمر؛ حيث تجلت الحرية الحقيقية في أسمى معانيها وفي أجمل مظاهرها بحيث أصبحت حرية النقد وحرية الفرد وعدالة الحكم التي سادت في عهد خلفاء الرسول ﷺ أنشودة يتغنى بها الناس إلى عهدنا الحاضر..

نقول: كان من الطبيعي أن يكون الإمام علي كرم الله وجهه كواحد من أفراد الرعية من الناقدين لسياسة عثمان وبطانته، التي حجبته عن قلوب رعاياه، ناصحاً للخليفة بإقصاء تلك البطانة وتبديل السياسة التي تزينها له وتغريه باتباعها، وصم الآذان عن الناصحين له بالإقلاع عنها.

**المآخذ على سياسة عثمان بن عفان ﷺ :**

وكان مما أخذ علي على عثمان بن عفان ﷺ أول مبايعته بالخلافة أنه ترك القصاص من عبيد الله بن عمر الذي كان يقتنع بأن مقتل أبيه عمر بن الخطاب لم يكن جريمة فردية اقترفها أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة بن شعبة؛ بل كان مؤامرة مدبرة نسج خيوطها ثلاثة نفرٍ هم : الهرمزان الفارسي وجفينة أحد نصارى الحيرة وأبو لؤلؤة. وكان الذي قوى اقتناعه بتآمر هؤلاء على أبيه ما شهد به عبد الرحمن بن عوف من أنه رأى الخنجر الذي طعن به عمر مع الهرمزان وجفينة عشية الحادث الذي رَوَّع المسلمين، وأدلى بأوصافه فوجدها المسلمون مطابقة للخنجر الذي طعن به أبو لؤلؤة عمر بن الخطاب، فلم يملك عبيد الله نفسه وتقلد سيفه فقتل الهرمزان وجفينة وابنة صغيرة لأبي لؤلؤة تدَّعي الإسلام.

وقد غضب الناس من اندفاع عبيد الله، ورأوا في تصرفه مجافاة لشريعة الإسلام، فحبسوه حتى يرى فيه الخليفة الجديد رأيه، فعقد عثمان مجلساً للمشاورة حضره أكابر الصحابة، فأشار علي بن أبي طالب بقتل عبيد الله قصاصاً، فاعترض البعض قائلين : قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم؟! فرأى عثمان — خروجاً من هذا المأزق — أن يعتبر نفسه وليَّ الذين قتلوا، فقبل فهيم الدية، وأداها من ماله.

ومن المبررات التي سيقت للدفاع عن عثمان في ذلك الأمر قول أبي بكر بن العربي :"ولعل عثمان

كان لا يرى على عبيد الله حقًا ؛ لما ثبت عنده من حال الهرمزان وفعله"(١) .

ويعلق د/ محمد حسين هيكل على الرأي الذي انتهى إليه الخليفة عثمان ﷺ بشأن هذه القضية قائلاً :

"وكان هذا الرأي من عثمان عين الحكمة، فهو لم يُعْفِ عبيد الله من جريرة جريمته، وهو لم يأمر بتحقيق لأنه إذا أثبت مؤامرة الهرمزان وجفينة وفيروز أثار ثائرة الفرس والنصارى، ثم لم يبرئ عبيد الله من قتل ابنة أبي لؤلؤة عمداً في غير إثم وبغير حق، وقد استراح الناس جميعاً لرأي عثمان إلا جماعة دفعتهم الحمية للتعريض به ونقده، من هؤلاء زياد بن عبيد البياض الذي انطلق يقول الشعر يسيء به إلى عبيد الله وينقد به حكم عثمان، وقد جاء به عثمان وأمره أن يكف عن هذا التعريض فكف، وبذلك نامت فتنة لم يكن من الخير أن تستيقظ، وانصرف المسلمون في أرجاء الإمبراطورية إلى مألوف حياتهم قبل مقتل عمر (٢).

وكان مما اتهم به عثمان: محاباته لبني أمية، وأنه أطلق أيديهم في شئون الدولة، ومكن لهم فيها، فنقم الناس منه هذه السياسة وقالوا :

"إنه ولي أمور المسلمين من لا يصلح للولاية، حتى ظهر من بعضهم الفسوق، ومن بعضهم الخيانة، وقسم الولايات بين أقاربه وعُوتب على ذلك مراراً فلم يرجع، واستعمل الوليد بن عقبة بن أبي معيط (وهو أموي) على الكوفة حتى ظهر منه شرب الخمر، واستعمل سعيد بن العاص (وهو أموي) على الكوفة، وظهر منه ما أدى إلى إخراجه منها، وولي عبد الله بن سعد بن أبي سرح مصر حتى تظلم منه أهلها(وابن أبي سَرْح هو أخو عثمان من الرضاع)، وكتب إليه أن يستمر على ولايته سرًا خلاف ما كتب إليه جهراً، وولى معاوية الشام، فأحدث من الفتن ما أحدث، وولى عبد الله بن عامر كريز بن ربيعة الأموي (وهو ابن خالة عثمان) البصرة، ففعل من المناكير ما فعل، وولى أمره مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، وألقى إليه مقاليد أموره، ودفع إليه خاتمه وجعله كاتبه وصاحب تدبيره، وكان عثمان يؤثر أهله بالأموال الكثيرة من بيت المال، حتى إنه دفع إلى أربعة نفر

---

(١) القاضي أبو بكر بن العربي، العواصم من القواصم، ص:٢٨٩.

(٢) د/ محمد حسين هيكل، عثمان بن عفان، ص: ٥١.

من قريش ـــ زوجهم بناته ـــ أربعمائة ألف دينار، ودفع إلى مروان ألف ألف دينار، وطرد رسول الله ﷺ الحكم بن أبي العاص عن المدينة (وهو عم عثمان وأبو مروان بن الحكم) فلم يزل طريداً في زمن النبي ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما ولي عثمان آواه وردّه إلى المدينة.." (١) .

وكذلك فقد جمع القاضي أبو بكر بن العربي في كتابه "العواصم من القواصم" طائفة من التهم الباطلة التي افترى بها على عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ فقال :

"قالوا معتدين متعلقين برواية كذابين: جاء عثمان في ولايته ، بمظالم ومناكير ، منها : ضربه لعمار حتى فتق أمعاءه، ولابن مسعود حتى كسر أضلاعه، ومنعه عطاءه، وابتدع في جمع القرآن وتأليفه، وفي حرق المصاحف، وحمى الحمى، وأجلى أبا ذر إلى الربذة، وأخرج إلى الشام أبا الدرداء، ورد الحكم بعد أن نفاه رسول الله ﷺ، وأبطل سنة القصر في الصلوات في السفر، وولى معاوية ومروان ممن لم يكن من أهل الولاية، وأعطى مروان خمس إفريقية، وكان عمر يضرب بالدرة، وضرب هو بالعصا، وكتب مع عبده على جهله كتاباً إلى ابن أبي سرح في قتل من ذكر فيه، وعلا على درجة رسول الله ﷺ في المنبر، وقد انحط عنها أبو بكر وعمر، ولم يحضر بدراً وانهزم يوم (حنين) وفر يوم (أحد) ، وغاب عن (بيعة الرضوان) ، وولى الوليد بن عقبة وهو فاسق ليس من أهل الولاية" (٢) .

وقد كفانا ابن العربي مؤنة تفنيد هذه الاتهامات، وإظهار بطلانها، ولأهمية كلام ابن العربي في هذا الشأن نورده ملخصاً؛ قال ابن العربي في الرد على التهم المشار إليها:

"هذا كله باطل سنداً ومتناً ، أما قولهم : جاء عثمان بمظالم ومناكير فباطل، وأما ضربه لعمار وابن مسعود، ومنعه عطاءه فزور، وضربه لعمار إفك مثله، ولو فتق أمعاءه ما عاش أبداً، وقد اعتذر عن ذلك العلماء بوجوه لا ينبغي أن يشتغل بها؛ لأنها مبنية على باطل، ولا ينبني حق على باطل، ولا يذهب الزمان في مماشاة الجهال، فإن ذلك لا آخر له.

وأما جمع القرآن فتلك حسنته العظمى، وخصلته الكبرى، وإن كان وجدها كاملة، ولكنه أظهرها،

---

(١) د/ طه عبد المقصود: دراسات في تاريخ الخلافة الأموية، ص: ٣٢.

(٢) أبو بكر بن العربي : العواصم من القواصم، ص:٢٨٠، ٢٨١.

ورد الناس إليها، وحسم مادة الخلاف فيها، وكان نفوذ وعد الله بحفظ القرآن على يديه.

روى الأئمة بأجمعهم أن زيد بن ثابت قال : (أرسل إليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر : إن عمر أتاني ، فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقرّاء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن قلت لعمر : كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر : هذا والله خير، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر) ، قال زيد : قال لي أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرى، فاجمعه، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمروني به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر : هذا والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف، وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ } [1] حتى خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر في حياته ثم عند حفصة بنت عمر حتى قدم حذيفة بن اليمان على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه مما نسب إلى القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق .

---

(١) سورة التوبة ، آية: ١٢٨.

وأما ما روى من أنه حرقها أو خرقها ــ بالحاء المهملة أو الخاء المعجمة وكلاهما جائز ــ فإنه فعل ذلك لأنه كان في بقائها فساد، أو كان فيها ما ليس من القرآن، أو على غير نظمه، فقد سلم في بذلك الصحابة كلهم .

وأما نفيه أبا ذر إلى الربذة فلم يفعل، كان أبو ذر زاهداً، وكان يقرع عمال عثمان، ويتلو عليهم: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[1] ، ويراهم يتسعون في المراكب والملابس حين وجدوا فينكر ذلك عليهم، ويريد تفريق جميع ذلك من بين أيديهم ، وهو غير لازم، قال ابن عمر وغيره، من الصحابة وهو الحق : "إن ما أديت زكاته فليس بكنز"، فوقع بين أبي ذر، ومعاوية كلام بالشام، فخرج إلى المدينة فاجتمع إلى الناس، فجعل يسلك تلك الطريق فقال له عثمان : "لو اعتزلت" معناه : أنك على مذهب لا يصلح لمخالطة الناس ، فإن للخلطة شروطاً، وللعزلة مثلها ، ومن كان على طريق أبي ذر، فحاله يقتضي أن ينفرد بنفسه، أو يخالط ويسلم لكل أحد حاله مما ليس بحرام في الشرعية) ، فخرج إلى الربذة زاهداً فاضلاً، ولم يكن يصلح له إلا ذلك، لطريقته .

ووقع بين أبي الدرداء، ومعاوية كلام، وكان أبو الدرداء زاهداً فاضلاً ، قاضياً لهم، فلما اشتد في الحق، وأخرج طريقة عمر في قوم لم يحتملوها عزلوه، فخرج إلى المدينة، وهذه كلها مصالح لا تقدح في الدين، ولا تؤثر في منزلة أحد من المسلمين بحال .

وأما رد الحكم فلم يصح ، وقال علماؤنا في جوابه : قد كان أذن له فيه رسول الله ﷺ ، وقال لأبي بكر وعمر، فقالا له : إن كان معك شهيد رددناه، فلما ولى قضى بعلمه في رده، وما كان عثمان ليصل مهجور رسول لله ﷺ، ولو كان أباه، ولا لينقض حكمه.

وأما ترك القصر فاجتهاد ، إذ سمع أن الناس افتتنوا بالقصر، وفعلوا ذلك في منازلهم، فرأى أن السنة ربما أدت إلى إسقاط الفريضة فتركها مصلحة؛ خوف الذريعة ، مع أن جماعة العلماء قالوا: إن

---

(١) سورة التوبة ، آية: ٣٤.

المسافر مخير بين القصر والإتمام ، واختلف في ذلك الصحابة.

وأما معاوية فعمر ولاه، وجمع له الشامات كلها، وأقره عثمان؛ بل ورد إنما ولاه أبو بكر الصديق ﷺ؛ لأنه ولى أخاه يزيد، واستخلفه يزيد فأقره ذلك عمر، لتعلقه بولاية أبي بكر، لأجل استخلاف واليه له، فتعلق عثمان بعمر وأقره.

وأما عبد الله بن كريز فولاه كما قال؛ لأنه كريم العمات والخالات .

وأما تولية الوليد بن عقبة؛ فلأن الناس على فساد في النيات أسرعوا إلى السيئات قبل الحسنات، قال عثمان : ما وليت الوليد لأنه أخي، وإنما وليته لأنه ابن أم حكيم البيضاء عمة رسول الله ﷺ، وتوأمة أبيه، وسيأتي بيانه إن شاء الله ، والولاية اجتهاد ، قد عزل عمر سعد بن أبي وقاص، وقدّم أقل منه درجة.

وأما إعطاؤه خمس إفريقية لواحد، فلم يصح، على أنه قد ذهب مالك وجماعة إلى أن الإمام يرى رأيه في الخمس، وينفذ فيه ما أداه إليه اجتهاده، وأن عطاءه لواحد جائز .

وأما قولهم : إنه ضرب بالعصا؛ فما سمعته ممن أطاع ولا عصا، وإنما هو باطل يحكى، وزور ينشى ، فيا لله وللنهي.

وأما علوه على درجة رسول الله ﷺ ، فما سمعته ممن فيه تقية، وإنما هي إشاعة منكر ليروى ويذكر فيتغير بها قلب من يتغير، قال علماؤنا: ولو صح ذلك فما في هذا ما يحل دمه، ولا يخلو أن يكون ذلك حقًّا، فلم ينكره الصحابة عليه إذ رأت جوازه ابتداء، أو لسبب اقتضى ذلك، وإن كان لم يكن فقد انقطع الكلام.

وأما انهزامه يوم حنين، وفراره يوم أحد ومغيبه عن بدر، وبيعة الرضوان، فقد بين عبد الله بن عمر، وجه الحكم في شأن البيعة، وبدر، وأحد، وأما يوم حنين فلم يبق إلا نفر يسير مع رسول الله ﷺ ، ولكن لم يجر في الأمر تفسير من بقى ممن مضى في الصحيح، وإنما هي أقوال، منها أنه ما بقى معه إلا العباس وابناه عبد الله ، وقثم ، فناهيك بهذا الاختلاف، وهو أمر قد اشترك فيه كثير من الصحابة، وقد عفا الله عنه ورسوله، فلا يحل المؤاخذة على ما أسقطه الله ورسوله والمؤمنون.

وقد أخرج البخاري أيضاً من حديث عثمان بن عبد الله بن موهب، قال :جاء رجل من أهل مصر يريد حج البيت، فرأى قوماً جلوساً فقال : من هؤلاء القوم؟ فقالوا : هؤلاء قريش، قال : فمن الشيخ فيهم؟ قالوا : عبد الله بن عمر، قال : يا ابن عمر إني سائلك عن شيء فحدثني ، هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد؟ قال : نعم ، قال : تعلم أنه تغيب عن بدر و لم يشهد؟ قال : نعم ، قال : تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال : نعم، قال : الله أكبر، قال ابن عمر: تعال أبين لك، أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله قد عفا عنه، وأما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته زينب بنت رسول الله ﷺ، وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ : إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً، وسهمه، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان، فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه، فبعث رسول الله ﷺ عثمان (وكان بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان) إلى مكة فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى : (هذه يد عثمان) فضرب بها على يده، وقال : (هذه لعثمان) ثم قال ابن عمر : اذهب بها الآن معك.

وأما أمر الحمى فكان قديماً، فقال : إن عثمان زاد فيه لما زادت الرعية، وإذا جاز أصله للحاجة إليه جازت الزيادة فيه لزيادة الحاجة.

وأما قول القائل في مروان، والوليد، فشديد عليهم، وحكمهم عليهم بالفسق، فسق منهم، ومروان رجل عدل من كبار الأمة عند الصحابة، والتابعين، وفقهاء المسلمين، أما الصحابة فإن سهل بن سعد الساعدي روى عنه ، وأما التابعون فأصحابه في السنن، وإن كان جازهم باسم الصحبة في أحد القولين، وأما فقهاء الأمصار فكلهم على تعظيمه، واعتبار خلافه، والتلفت إلى فتواه، والانقياد إلى روايته، وأما السفهاء من المؤرخين والأدباء فيقولون على أقدارهم.

وأما الوليد فقد روى بعض المفسرين أن الله سماه فاسقاً في قوله:{ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ }(١) ، فإنها في قولهم نزلت فيه، أرسله النبي ﷺ مصدقاً إلى بني المصطلق فأخبر عنهم أنهم ارتدوا، فأرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد، فثبت في أمرهم فبين بطلان قوله، وقد اختلف فيها، فقيل نزلت في ذلك ، وقيل في علي والوليد في قصة أخرى، وقيل : إن الوليد سبق يوم

---

(١) سورة الحجرات، آية : ٦.

الفتح في جملة الصبيان إلى رسول الله ﷺ فمسح رؤوسهم ، وبرّك عليهم إلا هو ، فقال: إنه كان على رأسي خلوق، فامتنع من مسه فمن يكون في هذا السن يرسل مصدقاً؟ وبهذا الاختلاف يسقط العلماء الأحاديث القوية، فكيف يفسق رجل يتمثل هذا الكلام؟ فكيف برجل من أصحاب محمد ﷺ ؟

وأما حدّه في الخمر، فقد حدّ عمر قدامة بن مظعون على الخمر وهو أمير وعزله، ثم قيل له : صالحه ، وليست الذنوب مسقطة للعدالة إذا وقعت منها التوبة، وقد قيل لعثمان : إنك وليت الوليد؛ لأنه أخوك لأمك أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، فقال : بل لأنه ابن عمة رسول الله ﷺ أم حكيم البيضاء جدة عثمان، وجدة الوليد لأمهما أروى المذكورة، وكانت أم حكيم توأمة عبد الله أبي رسول الله ﷺ ، وأي حرج على المرء أن يولي أخاه أو قريبه؟" (انتهى كلام ابن العربي) (١).

وبالرغم من ذلك كله كان علي ﷺ أول من يسارع بالغوث كلما هجم الثوار على تلك البطانة وهموا بإقصائها عنوة من جوار الخليفة ... فقد كان يرى عليه واجباً أدبيًّا ودينيًّا نحو الإمام وجمع الكلمة، وكان نابذاً للفرقة كارهاً للفوضى بدليل أنه فرغ ولديه الحسن والحسين، بعدما تفاقمت الأوضاع وبدت نذر الشر للدفاع عن الخليفة وصد الثوار عنه ... لقد كان علي ﷺ في موقف لا يحسدعليه فهو من ناحية يرى نفسه مسئولاً عن الخليفة أمام الثوار ... وفي الوقت نفسه مسئولاً عن الثوار أمام الخليفة ...

جاء الثوار مرة من مصر خاصة يتخطون الخليفة إليه، ويعرضون الخلافة عليه، فلقيهم أسوأ لقاء، وأنذرهم لئن عادوا إليها ليكونن جزاؤهم عنده وعند الخليفة القائم جزاء العصاة المفسدين في الأرض ...

* * * *

---

(١) العواصم من القواصم، ص:٢٨١ وما بعدها.

## عثمان بن عفان يدافع عن نفسه في خطبة جامعة

ولما رأى عثمان ﷺ اجتماع الثوار عليه، وتوافدهم من الأمصار المختلفة؛ لإجباره على التنازل عن الخلافة أو قتله أرسل إليهم رجلين أحدهما من بني مخزوم، والآخر من بني زهرة ليقفا على سبب مجيئهم إلى المدينة، فلما التقيا بهم، قالوا لهما : نريد أن نذكر له (أي لعثمان) أشياء قد زرعناها في قلوب الناس، ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنا قررناه بها، فلم يخرج منها ولم يتب، ثم نخرج كأنا حجاج حتى نقدم فنحيط به، فنخلعه، فإن أبى قتلناه، ثم عاد الرجلان إلى عثمان وأخبراه بما سمعاه عن هؤلاء القوم، فضحك وقال : "اللهم سلم هؤلاء، فإنك إن لم تسلمهم شقوا" .

دعا عثمان المسلمين إلى صلاة جامعة، فاقبلوا جميعاً إلى مسجد المدينة، وفيهم صحابة الرسول ﷺ، فوقف عثمان فيهم خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وأخبرهم خبر القوم، ثم قام الرجلان اللذان كان عثمان قد بعثهما للوقوف على حقيقة أغراض الوافدين إلى المدينة، فقالا لعثمان : "اقتلهم ، فإن رسول الله ﷺ قال : "من دعا إلى نفسه أو إلى أحد وعلى الناس إمام فعليه لعنة الله، فاقتلوه" ، فقال عثمان : "بل نعفو ونقيل ونبصرهم بجهدنا، ولا نحاد أحداً حتى يركب حداً أو يبدي كفراً، إن هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذي علمتهم إلا أنهم زعموا أنهم يذاكرونها ليوجبوها عليَّ عند من لا يعلم".

ثم أخذ عثمان يسوق ما اتهمه به هؤلاء الثوار، ويدافع عن نفسه فيرد الاتهام عنه، فقال : "قالوا: أتم الصلاة في السفر وكانت لا تتم، ألا وإني قدمت بلداً فيه أهلي، فأتممت لهذين الأمرين أو كذلك"؟ فقالوا: "اللهم نعم" ، وانتقل عثمان إلى الاتهام الثاني، فقال : "وقالوا: وحميت حمى ، وإني والله ما حميت حمى قبلي، والله ما حموا شيئاً لأحد ما حموا إلا غلب عليه أهل المدينة، ثم لم يمنعوا من رعية أحداً، واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع، ثم ما منعوا ولا نحوا منها أحداً إلا من ساق درهماً، وما لي من بعير غير راحلتين ... وإني قد وليت وإني أكثر العرب بعيراً وشاة، فما لي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجي، أكذلك؟" ، فقال له الحاضرون : "اللهم نعم"، وطلبوا منه أن يقتل هؤلاء الثوار؛ فأبى عثمان ومضى يفند اتهاماتهم له؛ فقال : "وقالوا

: إني رددت الحكم بن العاص ــ وقد سيره رسول الله ﷺ ــ والحكم مكي سيّره رسول الله ﷺ من مكة إلى الطائف، ثم رده رسول الله ﷺ فرسول الله سيّره ، ورسول الله رده ...أكذلك؟" ، فأجاب الحاضرون : "اللهم نعم"، ثم قال عثمان : وقالوا استعملت الأحداث، و لم أستعمل إلا مجتمعاً محتملاً مرضياً، وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه، وهؤلاء أهل بلده، ولقد ولّى من قبلي أحدث منهم، وقيل في ذلك لرسول الله ﷺ أشد مما قيل لي في استعماله أسامة أكذلك؟" فأجاب الحاضرون في المسجد : نعم .

واصل عثمان تفنيد الاتهامات التي وجهت إليه فقال : "وقالوا إني أحب أهل بيتي وأعطيهم، فأما حبي فإنه لم يمل معهم على جور، بل أحمل الحقوق عليهم، وأما إعطاؤهم، فإني أعطيهم من مالي، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس، ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيدة من صلب مالي أزمان رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر ــ رضي الله عنهما ــ وأنا يومئذ شحيح حريص، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي وفني عمري وودعت الذي لي في أهلي ، قال الملحدون ما قالوا ، وإني والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلاً فيجوز ذلك لمن قاله، ولقد رددته عليهم وما قدم عليّ إلا الأخماس، ولا يحل لي منها شيء" .

استمع المسلمون الذي شهدوا هذا الاجتماع بالمسجد إلى دفاع عثمان عن سياسته، ورأوا أن يقتل عثمان كل من رفع لواء العصيان والثورة، غير أن عثمان آثر العفو عنهم ليعودوا إلى بلادهم، ولا غرو فقد كان العفو والتسامح من أبرز صفات عثمان(١) .

عاد الثوار كل إلى مصره؛ ولكنهم ما لبثوا أن أقبلوا على المدينة مرة أخرى وحجتهم ناهضة، ودليل التهمة التي يتهمون بها عثمان في أيديهم ...جاءوه بالخطاب الذي وجدوه في طريق مصر مع غلام عثمان يأمر عامله بقتلهم بعد أن وعدهم خيراً ... وأجابهم إلى تولية العامل الذي يرضيهم، فلم تخدعه حجتهم الناهضة و لم يشأ أن يملي لهم في ثورتهم واحتجاجهم من جراء ذلك الخطاب المشكوك فيه وجعلهم متهمين ... مسئولين ... بعد أن كانوا متهمين .. سائلين .. فقال لهم: وما

---

(١) د/ محمد حسين هيكل : عثمان بن عفان، ص:١١٨ــ ١٢٠.

الذي جمعكم في طريق واحد ... وقد خرجتم من المدينة متفرقين .. كل منكم إلى وجهة ؟!
وكانت حيرة علي بين التقريب والإبعاد أشد من حيرته بين الخليفة والثوار، فكان يؤمر تارة بمبارحة المدينة ليكف الناس عن الهتاف باسمه، ويستدعي إليها تارة أخرى ليردع الناس عن مهاجمة الخليفة .. فلما تكرر ذلك قال لابن عباس الذي حمل إليه رسالة عثمان بالخروج إلى ماله في ينبع : يا ابن عباس ما يريد عثمان إلا أن يجعلني جملاً ناضحاً بالغرب (الدلو) أقبل وأدبر، بعث إلى أن أخرج، ثم بعث إلى أن أقدم ، ثم هو الآن يبعث إلى أن أخرج ... والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً ...
ثم بلغ السيل الزبي ، كما قال عثمان ﷺ ... فكتب إلى علي يذكر له ذلك ، ويقول : إن أمر الناس ارتفع من شأني فوق قدري وزعموا أنهم لا يرجعون دون دمي وطمع في من لا يدفع عن نفسه.

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكلي        وإلا فأدركني ولما أمزق

فعاد عليٌ وجهد في إنقاذ الخليفة جهده ...ولكنه يعالج داء استعصى دواؤه ... وابتلى به أطباؤه..
ووعد الخليفة وعده الأخير ليصلحن الأحوال ويبدلن العمال ...
وأحاطت به بطانته كدأبها في أثر كل وعد من هذه الوعود، تنهاه أن ينجز، وتخيفه طمع الناس فيه، إن هو أنجز ما وعدهم حين توعدوه ...
ويعلق الأستاذ العقاد على هذه الأحداث فيقول : "وكانت المرأة أصدق نظراً من الرجال في هذه الغاشية التي تضل فيها العقول، فأشارت عليه امرأته السيدة نائلة باسترضاء علي والإعراض عن هذه البطانة .. ولم يكن أيسر على بطانته من إقناعه بضعف هذا الرأي بعد سماعه من امرأة ضعيفة ... فكان مروان يقول : والله لإقامة علي خطيئة نستغفر الله منها أجمل من توبة في تخوف عليها .. وكان عثمان ﷺ يأذن لمروان ليكلم الناس فلا يكلمهم إلا بالزجر والإصرار كما قال لهم يوماً : ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب.. شاهت الوجوه .. جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا ... ارجعوا إلى منازلكم فإنا والله ما نحن مغلوبون على ما في أيدينا ...
هجم الثوار على باب الخليفة ــ فمنعهم الحسن بن علي وابن الزبير ومحمد بن طلحة

ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وطائفة من أبناء الصحابة.

واجتلدوا فمنعهم عثمان وقال لهم: أنتم في حل من نصرتي، وفتح الباب ليمنع الجلاد حوله، ثم قـام رجل من أسلم يناشد عثمان أن يعتزل فرماه كثير بن الصامت الكندي بسهم فقتله ... فجن جنـون الثوار يطلبون القاتل من عثمان ولكنه يأبى أن يسلمه إليهم، ويقول لهم : لم أكن لأقتل رجلاً نصرني وأنتم تريدون قتلي ... وعز على الثوار أن يدخلوا من الباب الذي كان قد أغلـق بعـد فتحـه.. فاقتحموا الدار من الدور التي حولها ... وأقدموا على فعلتهم النكراء بعد إحجام كثير ...

ونقل الخبر إلى المسجد وفيه (عليّ) جالس في نحو عشرة من المصلين، فراعه منظر القـادم وسـأله : ويحك !! ما وراءك؟.. قال : والله لقد فرغ منه الرجال..فصاح به: تبًّا لكم آخر الدهر وأسـرع إلى دار الخليفة المقتول.. فلطم الحسن وضرب الحسين وشتم محمد بن طلحة وعبـد الله بـن الـزبير .. وجعل يسأل ولديه: كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب؟ فأجاب محمد بن طلحة : لا تـضرب يا أبا الحسن ولا تشتم ولا تلعن ... لو دفع مروان ما قتل .

**وثمة ملاحظات لابد من إثباتها في هذا السياق لإلقاء مزيد من الضوء على تلك النهاية الفاجعـة التي آلت إليها حياة الشهيد عثمان بن عفان، وبيان براءة الصحابة جميعاً وعلى رأسـهم الإمـام علي من دمه :**

**أولاً** : لقد رفض عثمان بن عفان ﷺ الاستجابة لمطلب الثوار والمتمردين بالتنازل عن الخلافة؛ حـتى لا تصير سنة كلما كره قوم خليفتهم خلعوه؛ وفي ذلك يقول ابن العربي :

ولقد دخل عليه ابن عمر فقال : انظر ما يقول هؤلاء، يقولون: اخلع نفسك أو نقتلك، فقال لـه : أمخلد أنت في الدنيا؟ قال : لا ، قال : هل يزيدون على أن يقتلوك؟ قال : لا ، قال : هـل يملكـون لك جنة أو ناراً؟ قال : لا ، قال : فلا تخلع قميص الله عنك، فتكون سنة ، كلما كره قوم خليفتـهم خلعوه أو قتلوه" (١) .

---

(١) العواصم من القواصم ، ص: ٢٩٤.

ثانياً : آثر عثمان بن عفان التضحية بحياته على إراقة دماء المسلمين في فتنة لا يعلم مداها وعاقبتها إلا الله؛ فعن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : كنت مع عثمان في الدار فقال : أعزم على كل من رأى أن عليه سمعاً وطاعة، إلا كَفَّ يده وسلاحه ، ثم قال : قم يا ابن عمر ـــ وعلى ابن عمر سيفه متقلداً ـــ فاجر بين الناس، فخرج ابن عمر، ودخلوا فقتلوه ، وجاءه زيد بن ثابت فقال له : إن هؤلاء الأنصار بالباب يقولون : إن شئت كنا أنصار الله، مرتين، قال: لا حاجة لي في ذلك كفوا ، وقال له أبو هريرة : اليوم طاب الضرب معك، قال : عزمت عليك لتخرجن، وكان الحسن بن علي آخر من خرج من عنده، فإنه جاء الحسن والحسين، وابن عمر ، وابن الزبير، ومروان، فعزم عليهم في وضع سلاحهم، وخروجهم، ولزوم بيوتهم، فقال له ابن الزبير ومروان : نحن نعزم على أنفسنا ألا نبرح ففتح عثمان الباب، ودخلوا عليه في أصح الأقوال، فقتله الموت الأسود، وقيل: أخذ ابن أبي بكر بلحيته وذبحه رومان، وقيل : بل قتله رجل من أهل مصر يقال له حمار، فسقطت قطرة من دمه على المصحف على قوله تعالى :{فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ}(١) فإنها فيه ما حكت إلى الآن .

ولذلك يقول القاضي أبو بكر بن العربي : "إن أحداً من الصحابة لم يسع عليه ولا قعد عنه، ولو استنصر ما غلب ألف أو أربعة آلاف غرباء عشرين ألفاً بلديين أو أكثر من ذلك؛ ولكنه ألقى بيده إلى المصيبة"(٢).

وقال كذلك : "وأمر عثمان كله سنة ماضية، وسيرة راضية، فإنه تحقق أنه مقتول بخبر الصادق له بذلك، وأنه بشره بالجنة على بلوى تصيبه، وأنه شهيد، وروى أنه قال له في المنام : إن شئت نصرتك، أو تفطر عندنا الليلة، وقد انتدب المردة والجهلة إلى أن يقولوا : إن كل فاضل من الصاحبة كان عليه ساعياً مؤلباً ، وبما جرى عليه راضياً ، واخترعوا كتاباً فيه فصاحة وأمثال، كتب عثمان به مستصرخاً إلى علي، وذلك كله مصنوع ليوغر قلوب المسلمين على السلف الماضين ، والخلفاء الراشدين.

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٣٧.

(٢) العواصم من القواصم ، ص:٢٩٥ ـــ ٢٩٦.

قال القاضي أبو بكر ﷺ : فالذي تنخّل من ذلك أن عثمان مظلوم ، محجـوج بغـير حجـة، وأن الصحابة برآء عن دمه بأجمعهم؛ لأنهم أتوا إرادته، وسلموا له رأيه في إسلام نفسه" (١).

* * * *

(١) السابق، ص.٢٩٨

## كيف صارت الخلافة لعلي؟

روى سيف بن عمر عن جماعة من شيوخه: بقيت المدينة خمسة أيام بعد مقتل عثمان وأميرها الغافقي بن حرب يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر ... والمصريون يلحون على "علي" وهو يهرب إلى الحيطان ــ البساتين ــ ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه ... والبصريون يطلبون طلحة فلا يجيبهم ... فقالوا فيما بينهم : لا نولي أحداً من هؤلاء الثلاثة ... فمضوا إلى سعد بن أبي وقاص وقالوا : إنك من أهل الشورى، فلم يقبل منهم ... ثم راحوا إلى ابن عمر ، فأبى عليهم .. فحاروا في أمرهم ، ثم قالوا : إن نحن رجعنا إلى أمصارنا بقتل عثمان من غير أمره اختلف الناس في أمرهم ولم نسلم ... فرجعوا إلى علي فألحوا عليه .. وأخذ الأشتر بيده فبايعه الناس ... وكلهم يقولون: لا يصلح لها إلا علي ...

ولما كان يوم الجمعة وصعد إلى المنبر بايعه من لم يبايعه بالأمس وكان أول من بايعه طلحة بيده الشلاء ... فقال قائل : إنا لله وإنا إليه راجعون ... ثم الزبير، ثم قال الزبير : إنما بايعت عليًّا واللج(١) على عنقي والسلام .

وينكر القاضي أبو بكر ابن العربي أن يكون الزبير، وطلحة قد بايعا مكرهين، ويشكك في الرواية الواردة في ذلك، كما ينكر الرأي القائل بأن الصحابة قد بايعوا عليًّا على أن يقتل قتلة عثمان قائلاً : هذا لا يصح في شرط البيعة، إنما بايعوه على الحكم بالحق، وهو أن يحضر الطالب للدم ويحضر المطلوب، وتقع الدعوى ويكون الجواب، وتقوم البينة ويقع الحكم ..

ويؤكد ابن العربي أن أحداً من الصحابة لم يتخلف عن بيعة علي، وإن تخلف بعضهم عن نصرته حين وقع النزاع بينه وبين أصحاب الجمل، وبينه وبين معاوية؛ لأن بيعته واجبة أما نصرته فمسألة اجتهادية تختلف فيها الأنظار وتتباين الرؤى(٢) .

لقد قبل علي ﷺ الخلافة على مضض ... قبلها وهي أشد ما تكون عبئاً ... وامتحاناً .. كما قبلها

---

(١) اللج : هو السيف.

(٢) العواصم من القواصم، ص: ٣٠٠.

من قبل أخواه أبو بكر وعمر .. لقد جاء الناس إليه فزعين (وما راعه إلا والناس تعرض الأمر عليه، ينثالون عليه من كل جانب، حتى لقد وطئ الحسنان (الحسن والحسين) وشق عطفاه، مجتمعين حوله كربيضة الغنم، يدعون إلى مبايعته، وهو يصيح بهم : "دعوني والتمسوا غيري .. فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وإن الإمامة قد أغامت (أظلمت) والمحجة قد تنكرت ، فإن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب ... وإن تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم... وأنا لكم وزيراً خير لكم مني أميراً .." .

فعلي إذن قد تولى الخلافة في ظروف نكدة ... وعلى كره منه ... وإنقاذاً لأمة يوشك عقدها أن ينفرط .

**سياسة عليّ :**

ثم بدأ علي بتنفيذ سياسته .. التي كان أبرز دعائمها أو مهامها الأولى من وجهة نظره لإصلاح الخلل ورأب الصدع :

* **المساواة بين الناس في المال وعدم المحاباة لذوي القربى** ... حتى تستريح نفوس الناس.
* **الأخذ برأي عمر بن الخطاب** ﷺ في عدم السماح للصحابة الكبار بالانسياح في الأمصار وحجزهم إلى جواره في المدينة حتى لا يفتتن بهم الناس.
* **عزل الولاة الذين دارت حولهم الشبهات** ... وكانوا أسباب الفتنة.
* **إعادة القطائع التي منحها عثمان لبعض أقربائه إلى بيت المال**؛ درءاً للشبهات، وتهدئة للخواطر وأخذاً بالأحوط من الرأي.
* **محاكمة قتلة عثمان** ... التي كان البعض وبخاصة المتاجرون بقميص عثمان يعتبرونها المهمة الأولى .. بينما كان علي يعتبرها المهمة الأخيرة . ويرى علي ﷺ أن ما يتعلق بالأمة أولى بالتقديم ... وأما القصاص لمن قُتِلَ فبالرغم من ضرورته، فهو ليس المشكلة الكبرى التي تستحق أن تهمل من أجلها أمور الأمة .

أجل ... لقد قبل على الخلافة كما يقبل الإنسان القضاء الذي يضعه في مكان المنقذ لأمته .. فعلى من هذا الجيل الفريد الفذ الذي ينظر للحكم على أنه تكليف لا تشريف؛ لأن هذا الجيل لم يكن ـ بحكم إيمانه ـ يستطيع أن يظلم ... ولأن هذا الجيل ـ بحكم تطبيق الشريعة ـ لم يكن يستطيع أن يطغى أو يجور أو يسرق أموال الأمة ويحتجزها لنفسه.

ويثور تساؤل مهم يتعلق بالحكم على خلافة علي وهو :

هل تعد خلافة علي بالصورة التي انعقدت بها خلافة شرعية؟ ! يقول أستاذنا الدكتور/ ضياء الدين الريس في الإجابة عن هذا التساؤل :

"أما أهل السنة فيرون أن خلافته انعقدت وهي صحيحة؛ لأن البيعة تمت له من أهل المدينة أو أكثرهم، ولأن عليًّا ـ كرم الله وجهه ـ كان أفضل الصحابة إذ ذاك وأكملهم شروطاً، ومن المهاجرين الأولين الذين أظهر الله الإسلام على أيديهم، ولقرابته من الرسول (عليه الصلاة والسلام)، وبناء على ذلك فهم يعتبرونه الخليفة الرابع من الخلفاء الراشدين، وجمهور المعتزلة يتفقون أيضاً مع أهل السنة في ذلك، ما عدا اثنين منهم خالفا في الرأي، وهما أبو بكر الأصم وهشام بن عمرو الفوطي؛ لأنهما يريان أن الخلافة لا تنعقد إلا بإجماع الأمة على بكرة أبيها، وعلي لم تجمع عليه الأمة كما أجمعت على الخلفاء الثلاثة قبله، بل جرى هذان مع منطقهما فاعتبرا معاوية الخليفة أو الإمام الرابع؛ حيث اجتمعت عليه الأمة في نظرهما؛ ولكن يرد عليهما بأن الأمة لم تجمع أيضاً على معاوية، وإذا كان النزاع قد انتهى بعد عام الجماعة؛ إلا أنه لا يمكن القول بأن الأمة جميعها كانت راضية باقتناع عن خلافة معاوية، وإنما المسألة كانت بالأكثر تسليماً بالأمر الواقع، ولم تكن هناك مبايعة عامة بالاختيار.

والخوارج يعترفون أيضاً بصحة خلافة علي، وانعقاد بيعته، وكانوا موالين له وعملوا تحت لوائه، ولكنهم خرجوا عليه بعد التحكيم؛ لأنهم كانوا يبغون استمرار القتال لمحاربة المخالفين.

أما الشيعة، وهم يعتقدون أن هناك نصًّا من النبي ﷺ على الوصاية لعلي بالخلافة ـ وهو مذهب الإمامية ـ أو أن النبي عينه بالوصف ـ وهو مذهب الزيدية ـ فإنهم طبعاً يؤكدون صحة خلافة

علي، ويعلنون أنه الإمام الحق؛ بل يعتقدون أنه صاحب الحق الوحيد في الخلافة منذ وفاة الرسول (عليه الصلاة والسلام)، إذ هم يرون أن الأمة ليس لها اختيار الإمام، غير أن فريقاً من الشيعة وهـم الزيدية يعترفون مع ذلك بإمامتي أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ فيتفقون في ذلك مع الأمة"(١) .

* * * *

(١) د/ محمد ضياء الدين الريس : النظريات السياسية الإسلامية ، ص: ١٨٤.

## وبدأ الصراع ضد عليّ

و لم يكد الإمام عليّ بن أبي طالب يلي أمر الخلافة حتى بدأ الصراع ضده ممن ساءهم مقتل عثمان ونقموا من عليّ التريث في القصاص من قتلته حتى تهدأ الفتنة وتستقر أمور الدولة أو ممن ساءهم السياسة التي انتهجها علي فحالت بينهم وبين أطماعهم وبين ما كانوا يتمتعون به في عهد الخليفة الشهيد عثمان .

كانت السيدة عائشة عائدة من فريضة الحج وسمعت بمقتل عثمان فعادت من الطريق إلى مكة وأعلنت غضبها وسخطها على قتلته، وأخذت تردد : "قُتل والله عثمان مظلوماً، لأطلبن بدمه" . وفي مكة وافاها طلحة والزبير وبنو أمية وكل من أغضبه مقتل عثمان، فاجتمع بمكة خلق من سادات الصحابة ـــ على نحو ما يذكر ابن كثير ـــ وقامت عائشة تخطب في الناس وتحضهم على القيام بطلب دم عثمان، فاستجاب الناس لها، وطاوعوها على ما تراه من الأمر بالمصلحة وقالوا لها : حيثما سرت سرنا معك، ثم أخذوا يتباحثون في الأمر فهداهم تفكيرهم إلى جمع جيش والمسير به إلى البصرة؛ بوصفها أقرب بلد إليهم من البلاد التي اشترك أهلها في الثورة على عثمان وقتله، وليستعينوا بمن فيها ممن ساءه قتل الخليفة (١) .

أما عن معاوية والي الشام القوي، وأحد من رفضوا مبايعة علي بالخلافة، فقد راح يهتم بدم عثمان، وعلل اتهامه لعليٍّ بتقصيره في القَوَدِ من الثائرين، وهم ألوف يحملون السلاح، وهو لم يسكن بعد إلى سلطان يعينه على القود من هؤلاء الألوف المسلحين، فماذا صنع معاوية بقاتلي عثمان حين صار الملك إليه ووجب عليه أن ينفذ العقاب الذي من أجله ثار واستباح القتال؟

إنه اتبع عليًّا فيما صنع، وأبى أن يذكر الثأر المقيم المقعد، وقد ذكروه به وألحوا في تذكيره، ولقد كان أول ما سمعه يوم زار المدينة ودخل بيت عثمان صيحة عائشة بنيته وهي تبكي : واأبتاه، فلم تزده هذه الصيحة المثيرة إلا إصراراً على الإغضاء والإعفاء .. وقال لها يعزيها : يا ابنة أخي إن

---

(١) انظر : ابن كثير : البداية والنهاية ٣٠٢/٤، د/ عبد الشافي عبد اللطيف: تاريخ العالم الإسلامي في عصر النبوة والخلافة الراشدة، ص: ٥٠٩، د/ السيد عبد العزيز سالم، ص: ٣٠٩، ٣١٠.

الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أماناً، وأظهرنا لهم حلماً تحته غضب، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد، ومع كل إنسان سيفه وهو يرى مكان أنصاره، فإن نكثنا بهم نكثوا بنا ولا ندري أعلينا تكون أم لنا، ولأن تكوني بنت عم أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عرض المسلمين.

ورجع عليّ ﷺ إلى خطة أبي بكر وعمر في تجنيب الصحابة الطامحين إلى الإمارة فتنة الولايات؛ مخافة عليهم من غوايتها، وإبعاداً لهم عن دسائس الشيع والعصبيات ، فلما طالبه طلحة والزبير بولاية العراق والكوفة قال لهما : بل تبقيان معي لآنس بكما، وسأل ابن عباس : ما ترى؟ فأشار بتولية الزبير البصرة، وتولية طلحة الكوفة، فقال علي : ويحك : إن العراقين بهما الرجال والأموال ... ومتى تملكا رقاب الناس يستميلا السفيه بالطمع، ويضرا الضعيف بالبلاء، ويقويا على القوي بالسلطان، ولو كنت مستعملاً أحداً لضره أو نفعه لاستعملت معاوية على الشام، ولولا ما ظهر من حرصهما على الولاية لكان لي فيهما رأي.

نعم ، إن هذه السياسة أغضبت منافسيه وطالبي المنفعة الدنيوية على يديه، ولكن السياسة الأخرى كانت تغضب أنصاره ولا تضمن له رضى المنافسين ودوامهم على الرضى والوفاق بينهم في تأييده.

ولم تمض أيام معدودة على مبايعته ﷺ حتى انتظمت صفوف الحجاز كله له أو عليه، فكان معه جميع الشاكين لأسباب دينية أو دنيوية، وكان عليه جميع الولاة الذين انتفعوا في عهد عثمان، وجميع الطامعين في الانتفاع بالولاية والأموال العامة، وحالت الخلافة الجديدة بينهم وبين ما طمعوا فيه .

****

## لماذا رفض علي إقرار ولاة عثمان على أعمالهم
## وأجل إقامة الحد على قتلة عثمان؟

وإنصافاً للحق يجب علينا أن نبين لماذا طلب علي تأجيل الحد من قتلة عثمان، وهذا ما وضحه عليّ نفسه؛ إذ وضح لطلحة والزبير وأصحاب رسول الله ﷺ حين طالبوه بإقامة الحد على من اشترك في دم عثمان، فبين لهم أن القوم الذين في أيديهم دم عثمان يملكون أهل المدينة وأهل المدينة لا يملكونهم، وقد صارت إليهم العبدان، وفاءت إليهم الأعراب وبأيديهم الحول والطول بالمدينة، وأهلها لا يقدرون منهم على شيء، وطلب إليهم إنظاره حتى تهدأ الحال، ويتمكن من أخذ المجرمين بذنوبهم .

وقد فسَّر ابن تيمية موقف عليّ بن أبي طالب ومعاوية في قضية القصاص بقوله : "لم يكن عليٌ ــ مع تفرُّق الناس عليه ــ متمكناً من قَتْل قتلة عثمان إلا بفتنة تزيد الأمر شرًّا وبلاءً، ودفع أفسد المفسدتين بالتزام أدناهما أولى من العكس؛ لأنهم ــ أي : الثوار الذين احتلوا المدينة النبوية وقتلوا عثمان ــ كانوا عسكراً، وكان لهم قبائل تغضب لهم، والمباشر منهم للقتل ــ أي : الذين نفذُّوا جريمة القتل ــ وإن كانوا قليلاً ــ كان ردؤهم ــ أي : الذين يساندونهم ــ أهل الشوكة، ولولا ذلك لم يتمكنوا ، ولما سار طلحة والزبير إلى البصرة ليقتلوا قتلة عثمان قام بسبب ذلك حرب (وهي : حرب الجمل) قتل فيها خلق ، ومما يبين ذلك أن معاوية قد أجمع الناسُ عليه بعد موت علي، وصار أميراً على جميع المسلمين، ومع هذا فلم يقتل قتلة عثمان الذين كانوا قد بقوا ــ أي : على قيد الحياة ــ ... فإن كان قتلهم واجباً ــ وهو مقدور له ــ كان فعله بدون قتال المسلمين أولى من أن يقاتل عليًّا وأصحابه لأجل ذلك. ولو قتل معاوية قتلة عثمان لم يقع من الفتنة أكثر مما وقع ليالي صفّين . وإن كان معاوية معذوراً في كونه ــ بعد أن صار خليفة ــ لم يقتل قتلة عثمان ــ إما لعجزه عن ذلك، أو لما يفضي إليه ذلك من الفتنة وتفريق الكلمة، وضعف سلطان، فعلي

أولى أن يكون معذوراً أكثر من معاوية؛ إذ كانت الفتنة وتفريق الكلمة وضعف سلطانه بقتل القتلة لو سعى في ذلك أشدَّ..."(١) .

دخل عليه المغيرة بن شعبة وكان داهية فقال لعلي : إن عليَّ حق الطاعة والنصيحة، وإن الرأي اليوم يحرز به ما في غد، وإن الضياع اليوم تضيع به ما في غد، أقرر معاوية على عمله، وأقرر ابن عامر على عمله، وأقرر العمال على أعمالهم، حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت أو تركت، فقال علي : أنظر ، وعاد إليه المغيرة من الغد، فقال : إني أشرت عليك بالأمس برأي، وإن الرأي أن تعالجهم بالنزوع فيعرف السامع مع غيره، وتستقبل أمرك، ثم خرج. وتلقاه ابن عباس ــ وكان قد قدم من الحج بعد مقتل عثمان ــ فقال لعليّ : رأيت المغيرة خرج من عندك ففيم جاءك؟ قال : جاءني أمس بذية وذية وجاءني اليوم بذية وذية أي بهذه وهذه ، فقال : أما أمس فقد نصحك، وأما اليوم فقد غشك . فقال له علي : و لم نصحني؟ قال : لأنك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا، فمتى تثبتهم لا يبالون بمن ولي هذا الأمر، ومتى تعزلهم يقولون: أخذ هذا الأمر بغير شورى، وهو قتل صاحبنا، ويؤلبون عليك فينقض عليك أهل الشام وأهل العراق مع أني لا آمن طلحة والزبير أن يكرا عليك، فقال عليّ : أما ما ذكرت من إقرارهم فوالله ما أشك أن ذلك خير في عاجل الدنيا ولإصلاحها، وأما الذي يلزمني من الحق والمعرفة بعمال عثمان فوالله لا أولي أحداً منهم أبداً، فإن أقبلوا فذلك خير لهم، وإن أدبروا بذلت لهم السيف . فقال ابن عباس : فأطعني وادخل دارك، أو الحق بمالك بينبع فإن العرب تجول وتضطرب عليك، فإنك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليحملنك الناس دم عثمان غداً، فأبى عليّ وقال لابن عباس : سر إلى الشام فقد وليتكها، فقال ابن عباس : ما هذا برأي معاوية، رجل بني أمية وهو ابن عم عثمان وعامله على الشام، ولست آمن أن يضرب عنقي بعثمان، وإن أدنى ما هو صانع أن يحبسني ويتحكم علي، فقال عليّ : و لم ؟ قال : لقرابة ما بيني وبينك، وإن كل ما حُمل عليك حُمِلَ عليّ، ولكن اكتب إلى معاوية فَمنّه وعِدْهُ ، فأبى عليّ.

****

---

(١) ابن تيمية : منهاج السنة النبوية، نقلاً عن : د/ طه عبد المقصود : دراسات في تاريخ الخلافة الأموية ، ص: ٣٨، ٣٩.

## كيف صارت الأحداث بعد تولية عليّ الخلافة؟

أخذت الأحداث تترى بعد تولي علي واضطربت الأوضاع وتفاقمت الأمور بعد أن أطلت الفتنة برأسها .. ومن المفيد أن نسرد هذه الأحداث في نقاط موجزة.

**١ـ العمال الجدد :**

وزع على عماله الجدد الذين توخى فيهم الصلاح والدين على الأمصار فمنهم من منع من الدخول ومنهم من هدد بالقتل .. وتفرق الناس إلى شيع وأحزاب بين مؤيدين ومعارضين لعليّ وخاصة أهل الكوفة والبصرة فهم على افتراق شديد منه .. وكان من الطبيعي أن يكون وراء هذه الأحداث المنتفعون والغوغاء ومثيرو الفتن الذين ينمون في هذه الأجواء المضطربة يستفيدون من هذه الأوضاع ... وبلغ التمرد حده حينما أرسل عليّ إلى معاوية يطلب إليه أن يبايعه ... فأبى معاوية إلا بعد أن يقتص عليّ من قتلة عثمان .

**٢ـ إعلان القتال على أهل الفرقة :**

رأى عليّ أن الفرقة قد استفحلت ولابد من قمعها، فدعا ابنه محمد بن الحنفية فدفع إليه اللواء، وولى عبد الله بن العباس ميمنته وعمر بن سفيان ميسرته، وأبا ليلى عمر بن الجراح مقدمته، واستخلف على المدينة قثم بن العباس ... ثم قام وخطب في أهل المدينة فدعاهم إلى النهوض في قتال أهل الفرقة، وبينما هم كذلك إذ جاء الخبر عن أهل مكة أن القائم على رأس هذه الفرقة : طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين، فقام في الناس وأعلمهم بذلك ... وأنذرهم بقتالهم إن لم يكفوا عنه ... فاشتد الأمر على أهل المدينة واثاقلوا .. وشاع بينهم التمرد حتى أن عبد الله بن عمر رفض نصرة عليّ حينما أراد أن ينهض معه ليكون للناس أسوة ، ،كان جوابه : أنا رجل من أهل المدينة فإن يخرجوا أخرج، وإن يقعدوا أقعد، ولسان حال أهل المدينة يقول : لا ... والله ما ندري كيف نصنع فإن الأمر لمشتبه علينا ونحن مقيمون حتى يضيء لنا ويسفر. ولم يقم مع علي من أهل بدر سوى ستة نفر ... وبينما يجد عليّ هذا التخاذل حوله والتثاقل من أصحابه والتردد من أتباعه، نجد معاوية وقد

التف حوله أهل الشام يناصرونه ويعضدون موقفه، فكان هناك الحزم والترابط، بينما هنا التفكيك والتنافر .

أما في مكة فقد اجتمع طلحة والزبير وعائشة وعبد الله بن عامر ويعلى بن أمية وغيرهم، واتفقوا على أن ينطلقوا إلى البصرة ، ونادى مناديهم : إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة فمن كان يريد إعزاز الإسلام وقتال المحلين والثأر لعثمان .. فليدخل معنا... فتبعهم ألف من المجهزين بالمال والسلاح ... وأرادت حفصة الخروج فمنعها عبد الله بن عمر .. وسار معهم مروان وسائر بني أمية ...

**٣ـ انقسام أهل البصرة على أنفسهم :**

انطلقت عائشة وأشياعها المطالبون بدم عثمان إلى البصرة ... فلما دنوا منها خرج إليهم عثمان ابن حنيف والي عليّ على البصرة وأرسل إليهم يسأل : ماذا يريدون ؟ .... فأجابت عائشة بأن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع أهل القبائل غزوا حرم رسول الله، وأحدثوا فيه الأحداث وبذلك استوجبوا فيه لعنة الله ورسوله مع ما نالوا من قتال إمام المسلمين بلا عذر، ولما سأل طلحة والزبير عن سبب قدومهما ... قالا : المطالبة بدم عثمان ... وهنا عزم عثمان بن حنيف على منع القوم من دخول البصرة وخطب الناس خطبة طويلة بيّنَ لهم فيها موقف طلحة والزبير وهما اللذان قد بايعا عليًّا .. وانتقد بعض الناس موقف السيدة عائشة، وقال لها أحدهم وهو حاربة بن قدامة السعدي : يا أم المؤمنين، والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح!! .. إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكت سترك وأبحت حرمتك، إنه من رأى قتالك فإنه يرى قتلك ... إن كنت خرجت طائعة فارجعي إلى منزلك .. وإن كنت أتيتنا مستكرهة فاستعيني بالناس ..

وخرج شاب من بني سعد إلى طلحة والزبير فقال: أما أنت يا زبير فحواري رسول الله ﷺ ، وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله ﷺ بيدك ، وأرى أمكما معكما ... فهل جئتما بنسائكما؟ قال : لا ، قال : فما أنا منكما في شيء ... وانقسم الناس من أهل البصرة إلى فريقين : فريق يناصر عليًّا ... وآخر يناصر حزب عائشة ..

واستتب الأمر بالبصرة بعد قتال بين عثمان ومن معه، وبين طلحة والزبير وأنصارهما ..

ولما بلغ عليًا أخبار طلحة والزبير وعائشة في البصرة عدل عن المسير إلى الشام وبعث إلى أهل الكوفة محمد بن أبي بكر ومحمد بن عوف ليستميلهم إليه، ثم سار والناس من القبائل يتلاحون به حتى نزل على ذي قار وقد وافاه عثمان بن حنيف وبلغه ما كان من شأن قتلة عثمان .

وقد فشل رسولاه إلى الكوفة في مهمتهما نتيجة لتقاعد والي الكوفة أبي موسى الأشعري ، والذي قال لهما : لا نقاتل أحداً حتى نفرغ من قتلة عثمان ... وعاد فأرسل ابن عباس والأشتر ليجمعا الناس على أمره ولكنهما عادا كسابقيهما ، فأرسل ابنه الحسن وعمار بن ياسر، وهناك خطب الحسن الناس فوضح لهم مقاصدهم ودعاهم إلى إجابة أميرهم، وقال لهم : إني غاد فمن شاء منكم فليخرج على الظهر (البر)، ومن شاء فليخرج في الماء ... فخرج معه تسعة آلاف حتى وصلوا إلى ذي قار وعليّ بها . فقال لهم على : قد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة فإن يرجعوا فذاك ما نريد، وإن يلحوا داويناهم بالرفق وباينهم حتى يبدأوا بظلم، ولن ندع أمراً فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله .

**٤ــ وكاد الصلح أن يحدث :**

ولما حضر أهل الكوفة دعا علي القعقاع من ساداتهم وكان من أصحاب رسول الله ﷺ، وقال له: ألق هذين الرجلين (يعني طلحة والزبير) يا ابن الحنظلة فادعهما إلى الألفة والجماعة وعظم عليهما الفرقة ... وقدم القعقاع البصرة فبدأ بعائشة وثنى بطلحة والزبير، وأخذ يبين لهم خطأ موقفهم، وناشدهم أن يكونوا مفاتيح خير، وألا يعرضوا البلاد للبلاء، وما زال يحدثهم حتى قام له القوم إعجاباً وإجلالاً، وقالوا له : أحسنت وأصبت، فإن جاء عليّ بمثل ما قلت صلح الأمر ....

ويبدو أن هذا القول قد وقع من نفس عائشة وطلحة والزبير أحسن وقع، وأنه حملهم على إيثار العافية وما فيه الاجتماع، ونبذ الفرقة، ورتق ما فتقاه وما أجمل ذلك لو تم.

ورجع القعقاع إلى عليّ وأخبره بما كان منه مع القوم ومنهم، فأعجبه ذلك، وأشرف القوم على الصلح، ثم أمر عليّ بالرحيل.

**٥ـــ كيف اشتعلت الفتنة من جديد؟!...**

الصيد في الماء العكر وركوب الموجة هو طابع المتسلقين وديدن البطانات الفاسدة والشلل المتعفنة، الذين لا يستتب لهم أمر مع الاستقرار وسكون الأوضاع ... وهذه الشراذم ترى أن الصلح وجمع الشمل خطر عليهم، وتهديد لنفوذهم، وتقليص لدورهم المشبوه.

ولما كان أمر الصلح لا يضر أحداً من الأمة سوى المتاجرين بقميص عثمان؛ لأن حياتهم لا تكون إلا بدوام الشقاق بين علي وخصومه، ولهذا أشفقوا على أنفسهم أن يكون هذا الصلح على أعناقهم، فاجتمع رهط منهم وعلى رأسهم ابن السوداء وخالد بن ملجم، فتشاوروا فيما يصنعون، وألهمهم شيطانهم بخطة خبيثة ... قالوا: إذا اجتمع الناس غدا واصطلحوا فليس الصلح إلا علينا، وأشار بعضهم بقتل علي وطلحة حتى تكون هذه بتلك فيغفر الناس لهم ما أحدثوا بعثمان؛ ولكن هذا الرأي لم يحظ بموافقتهم، فقال آخر : إن عزكم في خلطة الناس فصانعوهم، وإذا التقى الناس غداً فأنشبوا القتال، ولا تفرغوهم للنظر، فإذا من أنتم معه لا يجد بدًّا من أن يمتنع، ويشغل الله عليًّا وطلحة والزبير عما يكرهون.

ولما وصل عليّ بعد ذلك إلى البصرة وقد بيتت هذه الطائفة المارقة المسماة بالسبئية (نسبة إلى عبد الله بن سبأ) من أنفسهم أمراً، وهو لا يعلم من أمرهم شيئاً، أرسل إلى القوم : "إن كنتم على ما فارقتم القعقاع عليه فكفوا وأقرونا نتزل وننظر في هذا الأمر، فتزلوا والقوم لا يشكون في الصلح، ومشت السفراء بين الفريقين، وبات الناس يداعبهم أمل السلامة والعافية، راجين من الله أن يقي الأمة الإسلامية شر هذه الفتنة.

ولكن السبئية كانوا قد صمموا على أمر فقاموا في جوف الليل، ووضعوا السلاح في أهل البصرة، فلما سأل طلحة والزبير عن ذلك متعجبين، أجاب السبئية : لقد طرقنا أهل الكوفة ليلاً، فقالا : قد علمنا أن عليًّا غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمة، وأنه لن يطاوعنا.

وعلم عليّ بمقولة الزبير وطلحة، فقال : قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة، وإنهما لن يطاوعانا، و لم يجد الفريقان بدًّا من القتال .

**٦ــ موقعة الجمل (١٠ جمادى الآخرة سنة ٣٦هــ) :**

وكانت عائشة في هودجها وقد جللته بالحديد وهي بمكة وجعلت فيه موضعاً لعينها وهي في عسكر أهل البصرة، ونفذ القضاء ووقع المحذور والتقى الجمعان ... في موقعة شرسة،كل فريق يحمل على الآخر، وأهل البصرة وشجعانهم وذوو النجدة منهم يلوذون بجمل عائشة يدافعون عنها حتى لا تصاب بشر، فقتل حوله خلق كثير ... ولما رأى عليّ كثرة القتلى حول الجمل، وأن الناس يستميتون دونه ولا يسلمونه أبداً ... نادى : اعقروا الجمل : فجاء إلى الجمل رجل من خلفه فعقره وسقط الهودج ... فجاء محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر واحتملا الهودج فنحياه عن القتلى وخرج بها محمد حتى أدنى البصرة .

ولما ظهر الضعف في الناس تركهم الزبير وولى وجهه شطر المدينة، فاتبعه عمرو بن جرموز حتى إذا كان بوادي السباع قتله .

وسقط في هذه الموقعة المشئومة عشرة آلاف مقاتل فيهم كثير من أعلام المسلمين وذوي المروءة والنجدة منهم الزبير وطلحة ومحمد بن طلحة وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد، وكثير غيرهم من قريش؛ حتى قالوا : قتل حول الجمل سبعون قرشيًّا.

ولما انتهت الموقعة صلى عليّ على القتلى من الفريقين وأمر بدفنهم جميعاً ... ثم زار السيدة عائشة ــ رضي الله عنها ــ بالبيت الذي نزلت فيه وقعد عندها فصاحت به صفية بنت طلحة الطلحات : أيتم الله منك أولادك كما أيتمت أولادي ... فلم يرد عليها شيئاً ... ثم خرج فأعادت عليه القول ... فلم يرد عليها .. فقال رجل أغضبه مقالها : يا أمير المؤمنين أتسكت عن هذه المرأة وهي تقول ما تسمع؟ فانتهره وهو يقول : ويحك .. إنا أمرنا أن نكف عن النساء وهن مشركات أفلا نكف عنهن وهن مسلمات ؟!!

وأمر بالسيدة عائشة فجهزت إلى المدينة خير جهاز ... وإنه لفي طريقه إذ أخبره بعض أتباعه عن رجلين ينالان من عائشة فأمر بجلدهما مائة جلدة ... ثم جاء يوم رحيلها فودعها بنفسه أكرم وداع، فقالت معترفة له بحسن صنيعه : "إنه والله ما كان بيني وبين عليّ في القديم إلا ما يكون بين المرأة

وأحمائها ، وإنه عندي لمن الأخيار".

وقال عليّ : "أيها الناس ... صدقت والله وبرت ، وإنه ما كان بيني وبينها إلا ذلك، وإنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة" .

وكان عليّ قد أرسل معها من يخدمها ويحف بها ... وقيل: إنه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس عممهن بالعمائم وقلدهن بالسيوف، فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به وتأففت وقالت : هتك ستري برجاله وجنده الذين وكلهم بي ... فلما وصلت إلى المدينة ألقى النساء عمائمهن وقلن لها : إنما نحن نسوة !!

فكانت هذه المروءة سنته مع خصومه من استحق منهم الكرامة ومن لم يستحقها، ومن كان في حرمة عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ ومن لم تكن له حرمة قط ... وهي أندر مروءة عرفت من مقاتل في عز القتال ..

بقيت الإشارة إلى أن ما أقبلت عليه السيدة عائشة ومن كان معها من الصحابة ـــ رضي الله عنهم ـــ اجتهاد خاطئ منهم؛ "لأنهم ـــ بتصرفهم هذا ـــ كما لو أنهم قد أقاموا حكومة أخرى غير حكومة الإمام، المبايع شرعاً من الأمة ، وهو الذي يُناط به وحده إقامة الحدود والقصاص من القتلة، وكان أفضل من هذا وأسلم لهم وللأمة كلها أن يتوجهوا إلى الإمام الشرعي بالمدينة، ويشدُّوا من أزره في هذا الوقت العصيب الذي تمر به الأمة، ويتشاوروا معه في أفضل طريقة لحل كل المشاكل التي تواجهها الأمة الإسلامية بعد استشهاد عثمان ﷺ ، ومنها ـــ بطبيعة الحال ـــ إقامة الحد على القتلة الأشقياء"(١) .

والذي تطمئن إليه النفس كما يذكر الدكتور/ عبد الشافي عبد اللطيف في كتابه "تاريخ الإسلام في عصر النبوة والخلافة الراشدة":

"أنه لا عائشة ولا طلحة ولا الزبير ولا عليّ ـــ رضي الله عنهم جميعاً ـــ كانوا يريدون القتال وسفك الدماء، ولم يكونوا يتصورون أن ذلك سيحدث، وكلُّ ما دفع عائشة ومن معها إلى الخروج

---

(١) د/ عبد الشافي عبد اللطيف : تاريخ العالم الإسلامي في عصر النبوة والخلافة الراشدة، ص: ٥٠٩.

هو اقتناعهم بأن عثمان قتل مظلوماً، وعليهم تقع مسئولية إقامة الحد على قتلته، و لم يكونوا أبداً مُعادين لعلي أو معترضين على خلافته، وقد عرفنا ميلهم جميعاً إلى الصلح لولا أن "السبئية" أفسدوا كل شيء، وأوقعوا الحرب ، فعليهم ـــ أي "السبئية" ـــ تقوم التبعة وتقع المسئولية؛ لأنهم هم الذين أشعلوا الفتنة من البداية، وقتلوا خليفة المسلمين ظلماً، أما الصحابة الكرام الذين اشتركوا في هذه الحرب فأصدق تعبير عن موقفهم ما قاله ابن خلدون : "وإذا نظرت بعين الإنصاف عذرت القوم أجمعين وعلمتَ أنها فتنة ابتلى الله بها الأمة" (١) .

ولقد ندمت عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ ندماً شديداً على ما حدث ، وقالت : "والله لوددتُ أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة" ، وندم عليّ هو الآخر على ما حدث، وقال العبارة نفسها التي قالتها عائشة ، "فكان قولهما واحداً"، كما يقول الطبري في تاريخه.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية : "إن عائشة لم تقاتل و لم تخرج لقتال، وإنما خرجت لقصد الإصلاح بين المسلمين، ثم تبين لها فيما بعد أن ترك الخروج كان أولى، فكانت إذا ذكرت خروجها تبكي حتى تبل خمارها، وهكذا عامة المسلمين ندموا على ما دخلوا فيه من القتال، فندم طلحة والزبير وعليّ ـــ رضي الله عنهم أجمعين ـــ و لم يكن لهؤلاء يوم (الجمل) قصد في الاقتتال؛ ولكن وقع الاقتتال بغير اختيارهم، فإنه لما تراسل علي وطلحة والزبير وقصدوا الاتفاق على المصلحة، وأنهم إذا تمكّنوا طلبوا قتلة عثمان ـــ أهل الفتنة ـــ فخشي القتلةُ فحملوا على عسكر طلحة والزبير، فظن طلحة والزبير أن عليًّا حمل عليهم، فحملوا هم دفعاً عن أنفسهم، فظن عليّ أنهم حملوا عليه، فحمل هو دفعاً عن نفسه، فوقعت الفتنة بغير اختيارهم، وعائشة ـــ رضي الله عنها ـــ راكبة ، لا قاتلت ولا أمرت بالقتال"، وقد روى عن علي أنه قال : "إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير وعثمان ممن قال الله تعالى فيهم { وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ} (٢) .

٧ ـــ تمرد معاوية بالشام وموقعة صفين :

---

(١) د/ عبد الشافي عبد اللطيف : المرجع السابق ، ص:٥١٢، ٥١٣.

(٢) البداية والنهاية ٣٢٤/٤، سورة الحجر : ٤٧.

انصرف عليّ من البصرة إلى الكوفة .. وقد أخذ البيعة من كل من جرير بن عبد الله البجلي، وكان عاملاً على همذان والأشعث بن قيس الكندي وكان عاملاً على أذربيجان ... وأرسل إلى معاوية حتى يوافيه بالبيعة ... وكتب إليه كتاباً يعلمه فيه اجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ونكث طلحة والزبير ... ومن كان من حربه إياهما ... ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار من الطاعة ...

ولكن داهيةَ الشام وثعلب السياسة والحيلة .... رد أغلظ رد وهذا ما نجلى في كتابه الذي أرسله إلى عليّ يقول فيه : "سلام عليك .. أما بعد فلعمري .. لو بايعك الذين ذكرت وأنت بريء من دم عثمان لكنت كأبي بكر وعمر وعثمان ... ولكنك أغريت بدم عثمان .... وخذلت الأنصار ... وقد أبى أهل الشام إلا قتالك ... حتى تدفع إليهم قتلة عثمان ... فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين!.. وإنما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم ... فلما فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام ... ولعمري ... ما حجتك على أهل الشام كحجتك على طلحة والزبير ... إن كانا بايعاك... فلن أبايعك أنا ... فأما فضلك في الإسلام وقرابتك من رسول الله ﷺ فلست أدفعه"...

و م يكن بد من المواجهة بين الفريقين ... ففي ذي الحجة سنة (٣٦هـ) كانت الفرقة من جيش العراق تخرج لتقابل مثيلتها من جيش الشام فيقتتلون .. ولا يزال الفريقان على هذا الحال حتى أهل المحرم فتوادع الفريقان إلى انقضائه طمعاً في الصلح .. واختلف بينهما الرسل في ذلك ...

**٨ ـ ووقعت الواقعة :**

انسلخ شهر المحرم و لم تسفر الوساطة عن نجاح أو تقدم، وبدت في الأفق نذر الحرب ... وأخذ معاوية وعمرو بن العاص ينظمان الجيوش ... وفعل علي مثلهما ... وقال لجنوده يلقنهم آداب الحرب وروح الفروسية في الإسلام : لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم ... فأنتم على حجة وتركهم حتى يقاتلوكم حجة أخرى .. فإذا هزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً ... ولا تجهزوا على جريح ... ولا تكشفوا عورة .. ولا تمثلوا بقتيل ... وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا ستراً ... ولا تدخلوا

داراً .. ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم ... ولا تهينوا امرأة ... وإن شتمن أعراضكم ... وسببن أمراءكم وصلحاءكم ... فإنهن ضعاف القوى والأنفس ...

وفي الأربعاء الثامن من صفر سنة (٣٧هـ) ... زحف عليّ بجنود أهل العراق ... وزحف له معاوية بجنود أهل الشام في يوم مشئوم ... أسدل الليل سواده عليهم ولما تكتب الغلبة لأحد من الفريقين ... ثم أعادوا الكرة في الغد في حملة شديدة استمر القتال طوال النهار والليل، وهي الليلة المسماة بليلة (الهرير)، وفي غمار المعركة وحين بدت معالم النصر تلوح لجند عليّ ... لجأ أهل الشام إلى الحيلة فرفعوا المصاحف على أسنة الرماح ... وقال قائلهم : هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم ... من لثغور الشام بعد أهل الشام ... ومن لثغور العراق بعد أهل العراق؟ ... فلما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة ... قالوا : نجيب إلى الله ... ولكن عليًّا رأى أن هذه خدعة من قبل معاوية وعمرو وأصحابهما ... ورأى استمرار القتال ... ولكنه أمام إصرار أصحابه نزل على رغبتهم حينما هددوه ورأى أن الفتنة على وشك الوقوع بين صفوفه ... فأمر بوقف القتال ... وأرسل إلى معاوية الأشعث بن قيس فسأله : لأي شيء رفعتم هذه المصاحف؟ ... فقال معاوية : لنرجع نحن وأنتم إلى أمر الله عز وجل في كتابه ... تبعثون منكم رجلاً ترضون به ... ونبعث منا رجلاً ... ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله ... لا يعدوانه ... ثم نتبع ما اتفقا عليه ....

وكما أكره الإمام عليّ ﷺ على التحكيم، أكره كذلك على اختيار من يمثله، فقد كان يريد أن ينيب عنه ابن عمه عبد الله بن عباس؛ ولكن أنصاره ولاسيما من أبناء اليمن بزعامة الأشعث بن قيس رفضوا ذلك وأجبروه على اختيار أبي موسى الأشعري ممثلاً له ونائباً عنه، في حين أناب معاوية وأهل الشام عمرو بن العاص (١).

وقد أسيء تصوير حادث التحكيم وأسيء تفسيره؛ فكانت القصة أو الرواية الشائعة بين الناس أن ثمة خداعاً ومكراً وقعا في التحكيم؛ حيث تذكر هذه الرواية أن عمرو بن العاص وأبا موسى الأشعري بعد أن اجتمعا وتداولا في أمر الخلافة بين علي ومعاوية "اتفقا على خلع علي ومعاوية

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٦١/٤، المسعودي : مروج الذهب ٤٠٢/٢.

جميعاً ... وعندما قررا إعلان اتفاقهما أراد أبو موسى أن يقدم عمرو بن العاص ليكلم النـــاس أولاً، ولكن عمراً قال له : إن الله قد قدمك قبلي في الإيمان والهجرة، وأنت وافد أهل الـيمن إلى رســـول الله، ووافد رسول الله إليهم ... قم أنت فقام، فقال أبو موسى فقال (بعد أن حمد الله وأثنى عليــه): إني رأيت وعمرو أن نخلع عليًّا ومعاوية، ونجعلها (أي الخلافة) لعبد الله بن عمر بن الخطاب، فإنـــه لم يسط في هذه الحرب يداً ولا لساناً، وعندئذ قام عمرو بن العاص فقال : يا أيها النـــاس هـــذا أبـــو موسى شيخ المسلمين، وحكيم أهل العراق، ومن لا يبيع الدين بالدنيا، وقد خلع علياً ، وأنا أثبـــت معاوية ، وهنا قال أبو موسى : مالك؟ عليك لعنة الله! إن أنت إلا كمثل الكلب إن تحمـــل عليـــه يلهث أو تتركه يلهث! فقال له عمرو : ولكنك كمثل الحمار يحمل أسفاراً! فاختلط الناس، وتـــشاتم عمرو وأبو موسى[1] ... وثمة روايات أخرى شائعة لهذه القصة لا تخرج في مـــضمونها عـــن هـــذه الرواية.

وقد ناقش الدكتور/ محمد سليم العوا هذه الرواية مناقشة موضوعية، في كتابه "في النظام الـــسياسي للدولة الإسلامية"، وانتهى إلى تكذيبها ، والحكم بأنها موضوعة، بناءً على ثلاثة أمور؛ هي :

**أولاً : موضوع الخلاف بين عليّ ومعاوية :**

من المعروف والمتفق عليه بين جميع المؤرخين أن الخلاف بين علي ومعاوية ــ كالخلاف بـــين علـــي ومن حاربه يوم الجمل ــ كان سببه مقتل عثمان ﷺ، ذلك أنه بعد قتل عثمان ومبايعة علـــيّ رأى جماعة من الصحابة منهم طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة أ رضي الله عنهم ــ أن عليًّا قد قـــصر في المطالبة بدم عثمان، أي في توقيع عقوبة القصاص على قاتليه، وذلك الظن هو الذي جعـــل معاويـــة يمتنع عن بيعة عليّ وعن إنفاذ أوامره في الشام ذاهباً إلى أنه مـــن الأولى أن ينـــصرف المـــسلمون إلى تطبيق عقوبة القصاص على الذين قتلوا رئيس الدولة، ثالث الخلفاء الراشدين، ثم يبحثوا بعـــد ذلـــك موضوع الإمامة أو الخلافة، وكان رأي علي ﷺ أن بيعته قد انعقدت برضاء مـــن حـــضرها مـــن المسلمين في المدينة ولزمت بذلك بقية المسلمين في جميع الأقطار الإسلامية.

---

(١) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة١/١٣٦ ــ ١٣٨.

وإذا كان موقف معاوية واضحاً في رفضه البيعة، فإن عليًّا رأى أن معاوية ــ ومن معه من أهل الشام ــ بغاة خارجون عليه ــ وهو رئيس الدولة منذ بويع بالخلافة ــ وقرر أن يخضعهم ليلتزموا بجماعة المسلمين، وهكذا كانت الحرب بين عليّ ومعاوية حرباً أثارها اعتبار عليّ معاوية باغياً خارجاً عليه، وظن معاوية أن عليًّا قد قصر فيما يجب عليه من القصاص لعثمان بقتل قتلته، وامتناعه من ثم عن طاعته. وبعبارة أخرى : فإن معاوية رأى أن القصاص قبل البيعة لعلي، وهو ولي الدم ــ لقرابته من عثمان ــ فقرر أن يطبق على القتلة حكم القصاص وقد كانوا ــ أو كان معظمهم ــ بين الحجاز والعراق تحت حكم عليّ، ورأى علي في ذلك افتئاتاً على سلطانه، وخروجاً على اتفاق أهل المدينة على بيعته.

**ثانياً : المركز القانوني لمعاوية (١) :**

كان معاوية قد تولى حكم الشام نائباً عن عمر بن الخطاب، وبقي في ولايته إلى أن مات عمر، وتولى عثمان بن عفان أمر الخلافة فأقره في منصبه، ثم قتل عثمان وتولى عليّ بن أبي طالب الخلافة ببيعة من كان من المسلمين حاضراً في المدينة، وليس من شك في أن عليًّا ﷺ لم يقر معاوية في عمله بعد انتهاء ولايته بقتل عثمان ﷺ، وبذلك فقد معاوية مركزه القانوني، وإن لم يفقد مركزه الفعلي أو الواقعي كحاكم غير مولى للشام . فإذا كان ذلك صحيحاً ــ وهو عندي صحيح لا ريب فيه ــ فإن قرار الحكمين إذ تضمن فيما تزعم الرواية الشائعة عزل كل من علي ومعاوية، قد ورد في حق معاوية على غير محل له :إن اتباع أهل الشام لمعاوية لم يكن بسبب ولايته عليهم، فهذه الولاية قد انقضت ــ قانوناً ــ بمقتل الخليفة الذي ولاه أو أقره على ولايته، وإنما كان اتباعهم إياه على أساس من اقتناعهم بالسبب الذي جعله يرفض بيعة علي، وهو المطالبة باقتضاء حقه في القصاص من قتلة عثمان باعتباره وليًّا للدم، فهل كان الحكمان يملكان عزله عن قرابته؟ أو منعه من المطالبة بحقه فيها ؟

فهذا سبب آخر يؤيد بطلان القصة الشائعة عن مسألة التحكيم والقرار الصادر فيها، وقد رأينا من قبل أن الخلاف بين معاوية وعلي لم يشتمل على خلاف في أمر الخلافة، ورأينا هنا أنه لم يكن ثمة

---

(١) المكان السابق.

محل لعزل معاوية من مركز فعلي بوأه إياه اقتناع الناس برأيه.

**ثالثاً : أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص [١] :**

إن القول بأن أبا موسى الأشعري كان في قضية التحكيم ضحية خديعة عمرو بن العاص ينافي الحقائق التاريخية الثابتة عن فضله وفطنته وفقهه، ودينه، وهي الحقائق التي ثبتت له بتوليه بعض أعمال الدولة الإسلامية منذ عهد الرسول ﷺ .

فقد استعمل رسول الله ﷺ أبا موسى الأشعري على زبيد وعدن، وكذلك استعمله عمر بن الخطاب على البصرة، وقد بقي والياً عليها إلى أن قتل عمر بن الخطاب، وكذلك استعمله عثمان بن عفان على البصرة ثم على الكوفة وبقي والياً عليها إلى أن قتل عثمان ﷺ ، فهل يتصور أن يثق رسول الله ثم خلفاؤه من بعده في رجل يمكن أن تجوز عليه الخدعة التي يرويها الناس عن قضية التحكيم.

وقبول الرواية الشائعة عن التحكيم يعني أن عمرو بن العاص وأبا موسى الأشعري لم يفقها موضع النزاع ولم يحيطا بموضوع الدعوى؛ ولذلك حكما فيها الحكم الذي ترويه القصة الشائعة عن التحكيم، وإذا كان ذلك غير مقبول ــ لأنه في نظرنا غير معقول ــ فإننا نقرر باطمئنان أن هذه القصة لا يمكن أن تكون مطابقة لحقيقة الواقعة التاريخية لحادثة التحكيم.

وقبول تلك الرواية الشائعة أيضاً يعني الحكم على عمرو بن العاص ﷺ بأنه كان في أداء مهمته رجلاً تسيره الأهواء فتطغى، لا على فطنته وخبرته فحسب؛ بل على ورعه وتقواه أيضاً[٢].

ويقول القاضي أبو بكر بن العربي في نقد هذه الرواية الشائعة عن التحكيم : "وقد تحكم الناس في التحكيم فقالوا فيه ما لا يرضاه الله، وإذا لحظتموه بعين المروءة دون الديانة رأيتم أنها سخافة حمل على سطرها في الكتب في الأكثر عدم الدين، وفي الأقل : جهل متين" [٣] .

والذي نطمئن إليه بشأن حقيقة قرار الحكمين أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص أنهما اتفقا

---

(١) د/ محمد سليم العوا : المكان السابق.

(٢) د/ محمد سليم العوا : في النظام السياسي للدولة الإسلامية، ص:٩٢ــ ٩٧.

(٣) العواصم من القواصم، ص: ٣٠٨.

على أن يأخذ الناس مهلة مدتها ستة شهور حتى تهدأ النفوس، وتدمل الجروح، ويجتمع الحكمان للتباحث والوصول إلى حل، فلما اجتمعا انتهيا ــ بعد مفاوضات طويلة ــ إلى نتيجة رأياها أفضل الحلول، وهي عزل عليّ ﷺ عن الخلافة، ورد الأمر إلى الموجودين على قيد الحياة من أعيان الصحابة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ. أما التصرف العملي في إدارة البلاد التي كانت تحت يد كل من الرجلين المتحاربين فبقي كما كان، عليّ متصرف في البلاد التي تحت حكمه (وهي كل الدولة الإسلامية عدا الشام) ومعاوية متصرف في البلاد التي تحت حكمه (وهي الشام).

ويرى البعض أن الذي وقع في التحكيم هو أن الحكمين اتفقا على أن يبقى علي في الكوفة، وهو خليفة المسلمين، وأن يبقى معاوية في الشام أميراً عليها، واستدل أصحاب هذا الرأي بما رواه البخاري في (التاريخ الكبير) بسند صحيح أن عمرو بن العاص لما جاء موعد التحكيم التقى مع أبي موسى الأشعري، فقال : ما ترى في هذا الأمر؟ قال أبو موسى : أرى أنه (أي عليًّا) من النفر الذين توفى رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنهم، فقال عمرو : فأين تجعلني أنا ومعاوية؟ قال أبو موسى : إن يُستعنَ بكما ففيكما المعونة، وإن يُستغنَ عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما"، ثم انتهى الأمر على هذا [1].

## ٩- الخوارج

كان من الطبيعي أن تكون هناك فئة تقف موقفاً معارضاً للتحكيم ... بل هي تنكره أساساً .. بل غالت هذه الفرقة في رأيها وذهبت إلى تكفير الحكمين فخرجوا عن إجماع الأمة، وشقوا عصا الطاعة على عليّ فاستحقوا أن يطلق عليهم لفظ "الخوارج" ...

فقد اجتمعوا فيما بينهم وأبرموا أمراً ... وقالوا : إن هذين الحكمين قد حكما بغير ما أنزل الله... وقد كفر إخواننا حين رضوا بالتحكيم ... وحكموا الرجال في دينهم ... وقد أصبحنا والحمد لله ونحن على الحق من بين هذا الخلق ...

---

(١) نظر: تاريخ الطبري ٥/٦٧ ــ ٧١، البداية والنهاية ٤/٣٦٠ ــ ٣٦٢.

وقد زاد من صعوبة الأمر المهزلة التي انتهى التحكيم بها مما أضعف موقف علي ... وأغرى هذه الفئة بالمروق والتمرد ... وقد أبى علي قتالهم حتى ييأس من توبتهم ..وآثر أن يقنعهم عن طريق الحوار والإقناع، حتى يرجعهم إلى حظيرة الجماعة ..

ولتحقيق ذلك اقترح عليهم أن يخرجوا إليه رجلاً منهم يرضونه ليسأله ويجيبه ... ويتوب إن لزمته الحجة ... ويتوبوا إن لزمتهم ... فأخرجوا إليه إمامهم عبد الله بن الكواء ...

قال عليّ : ما الذي نقمتم عليّ بعد رضاكم بولايتي وجهادكم معي وطاعتكم لي، فهلا برأتكم مني يوم الجمل ...

قال ابن الكواء : لم يكن هناك تحكيم ..

قال عليّ : ويحك ... أنا أهدى أم رسول الله ﷺ ؟...

قال ابن الكواء : بل رسول الله ﷺ .

قال عليّ : قد سمعت قول الله عز وجل :{قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ} ... أكان الله يشك أنهم هم الكاذبون؟ ..

قال ابن الكواء : إن ذلك احتجاج عليهم وأنت شككت في نفسك حين رضيت بالحكمين ... فنحن أحرى أن نشك فيك !! ..

قال علي : وإن الله تعالى يقول : { فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ } (١) .

قال ابن الكواء : ذلك أيضاً احتجاج منه عليهم ...

ثم قال بعد كلام طويل من قبيل كلامه هذا : إنك صادق في جميع قولك غير أنك كفرت حين حكمت الحكمين !!

قال علي : ويحك يا ابن الكواء ... إني إنما حكمت أبا موسى وحكم معاوية عمرو ...

قال ابن الكواء : فإن أبا موسى كان كافراً !! ...

قال علي : متى كفر ؟ . . أحين بعثته أم حين حكم؟ ...

---

(١) القصص ٤٩

قال ابن الكواء : بل حين حكم ...

قال علي : أفلا ترى أني إنما بعثته مسلماً فكفر في قولك بعد أن بعثته؟ ... أرأيت لو أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً من المسلمين إلى ناس من الكافرين ليدعوهم إلى الله ـ وقد حدث هذا في عهد النبي ﷺ إذ أوفد نهاراً الرجال ليهدي قوم مسيلمة فانقلب هناك مبشراً بدينه ـ فدعاهم إلى غيره ، هل كان على رسول الله ﷺ من ذلك شيء.

قال : لا ...

قال : ويحك ... فما كان عليّ أن ضل أبو موسى ؟... أفيحل لكم بضلالة أبي موسى أن تضموا سيوفكم على عواتقكم فتعترضوا بها الناس؟

فعلم الخوارج أن صاحبهم ليس بند لعليّ في مجال النقاش، فكفوه عن الكلام كأنهم آمنوا بصدق علي في حجته وقصده ... لولا أنهم قوم قهرتهم لجاجة العناد كما تقهر أمثالهم من المتهوسين الذين يجدون في المضي مع العناد لذة لا يستمرئونها من الحق والمعرفة ... فأصروا على تكفير علي وأصحابه وأن يعاملوهم في الحرب والسلم معاملة الكفار ....

و لم يترك علي باباً للسلم إلا طرقه... ولكي يعطيهم فرصة أخيرة للرجوع عن غيهم رفع في الساحة راية ضم إليها ألفي رجل ونادى : من التجأ إلى هذه الراية فهو آمن ... ثم قال لأصحابه : لا تبدؤوهم بالقتال حتى يبدؤوكم ... فصاح الخوارج : لا حكم إلا لله ... وإن كره المشركون ... وهجموا هجمة رجل واحد فتلقاهم علي وأصحابه بعد نفاد صبر ويأس من إيابهم .. وتكلمت السيوف والرماح ... وإن هي إلا ساعة حتى استطاع شيعة علي أن يقضوا على معظم الخوارج... و لم يبق منهم سوى أربعمائة أصيبوا بجراح وعجزوا عن القتال ... فأمر بهم علي فحملوا إلى عشائرهم لينظروا من فيه رمق فيدركوه بعلاج !!..

**١٠ـ وانقسم الأتباع :**

مسكين الإمام عليّ !! ومظلوم بين أتباعه .. لا يكاد يخرج من فتنة وينجح في القضاء عليها ويستعد لبناء الدولة الجديدة حتى تلوح له فتنة أشد ومحنة أنكى ... فهو لم يكد يقضي على فتنة الجمل حتى

ظهرت له صفين ... التي تلاها التحكيم المزيل الذي لم يفق منه حتى استيقظ على ضجيج الخوارج ... ولم تكن الخوارج آخر الآلام ... أو نهاية المطاف ... ولم يبق بعد ذلك إلا أن ينقسم أصحابه عليه ... لتتم المأساة ... ورحمك الله يا علي فقد ساقتك الأقدار إلى أناس لا يجتمعون على رجل واحد ... ولا يجزمون أمرهم على راية ... وإنها لبطولة ورباطة جأش ... ومسئولية كبرى ينوء بحملها أفذاذ الرجال ...

لقد أراد الإمام عليّ كرم الله وجهه ورضي عنه أن يسير إلى الشام بعد قتال الخوارج ليلقى بها جيش معاوية ويقضي على مشعلي الفتنة... ويلم الشمل ... فإذا بالأشعث بن قيس يتصدى له كما تصدى له في كل فرصة سانحة للغلبة .... وقال له على مسمع من الناس .... يا أمير المؤمنين... نفدت نبالنا ... وكلت سيوفنا .... وفصلت أسنة رماحنا ... فارجع بنا إلى مقرنا لنستعد بأحسن عدتنا ... ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة من هلك منا ... فإنه أوفى لنا على عدونا... ولم يكن الرجل مخلصاً في قوله ... بل كان يرمي إلى هدف خبيث ... فالناس الآن وبعد القضاء على الخوارج على رأي رجل واحد ... وكانوا من الترابط والقوة بحيث لو توجهوا إلى معسكر الفتنة بالشام لأخمدوه .... ولاستتب الأمر لعلي، ولكنها إرادة الله ...

لقد رجع الناس إلى النخيلة وعسكروا بها وأمرهم عليّ أن يلزموا عسكرهم وأن يوطنوا أنفسهم على الجهاد ... وأن يقلوا زيارة نسائهم وأبنائهم ... حتى يسيروا إلى عدوهم ... لكن الجنود تسللوا من معسكرهم ... ولاذ من لاذ بالمدن القريبة منهم ... وأيقن علي أن القوم مارقون من يده ... ولا طاعة له عليهم إذا دعاهم بعدها للقتال ....

### ١١ــ الأمر الواقع !..

وبينما تفرق الناس من حول علي هنا ... نجد أن معاوية قد علا نجمه هناك بين قومه ... وأعانه طلاب المنافع عامدين ... وأعانه الخوارج غير عامدين ... فحاربوا عليًا ولم يحاربوه ... وطلبوا التوبة من عليّ ولم يطلبوها منه ... واستمر معاوية في إنفاذ البعوث والسرايا إلى كل موضع ... فلم تنقض سنتان حتى كانت معه مصر والمدينة ومكة ...

وبقى عليّ في أرض الكوفة بائساً منعزلاً عن الناس .. يتمنى الموت كما قــال في بعــض خطبــه... وانتهى بقبول المهادنة بينه وبين معاوية على أن تكون له العراق ولمعاوية الشام ... ويكفـــأ الــسيف عن هذه الأمة فلا نزاع ولا قتال .

* * * *

## وقتل الإمام.... واكتملت المأساة ...

لقد احتمع ثلاثة نفر وهم ... عبد الرحمن بن ملحم، والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمي... والثلاثة من غلاة الخوارج الموتورين ، الذين أعماهم الحقد وحجب عنهم نـــور البـــصيرة التعـــصب الأعمى ... فتذاكروا القتلى من رفاقهم، وتذاكروا القتلى من المسلمين عامة ... وألقـــوا وزر هـــذه الدماء كلها على ثلاثة من الكفار ـــ أو أئمة الضلالة في رأيهم وهم علي بن أبي طالب ومعاوية بـــن أبي سفيان وعمرو بن العاص ...

فقال ابن ملحم : أنا أكفيكم علي بن أبي طالب ...

وقال البرك : أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان ...

وقال عمرو بن بكر : أنا أكفيكم عمرو بن العاص ...

و لم يكن الدافع الدنيوي خافياً في مثل هذه الأمور ... فأحدهم وهو المتهوس عبد الرحمن بن ملحـــم كان يحمل في صدره ضغينة الثأر والانتقام، بالإضافة إلى حافز الغرام الظامئ الذي لا يرويـــه إلا دم ذلك الشهيد الكريم ...

فقد كان ابن ملحم يحب فتاة من تيم الرباب ... قتل أبوها وأخوها وبعـــض أقاربهـــا في معركـــة الخوارج ... وكانت توصف بالجمال الفائق والشكيمة القوية ... وتدين بمذهب قومها فوق مـــا في جوانحها من لوعة الحزن على ذويها ... فلما خطبها ابن ملحم كان مهرها هو قتل علي و لم ترضـــى به زوجاً إلا أن يشفي لوعتها ...

يقول لها ابن ملحم : وما يشفيك؟ ...

قالت : ثلاثة آلاف درهم وعبد وقينة ـــ مغنية ـــ وقتل علي بن أبي طالب !!

فوعدها خيراً (شرًّا ) !! ...

وتحدث المفاجأة والمصادفة العجيبة ...

يخرج الثلاثة متواعدين إلى ليلة واحدة ... ليقتل كل منهم صاحبه ...

فأما عمرو بن العاص ... فقد اشتكى وجع بطنه فلم يخرج تلك الليلة من بيته !! .. وأمر خارجة بن حذافة صاحب شرطته أن يصلي بالناس ... فضربه عمرو بن بكر وهو يحسبه عمراً... فقتله... فقال عمرو بن العاص : أردتني وأراد الله خارجة ... وأمر بقتله.

أما معاوية .... فضربه البرك بن عبد الله وقد خرج الغداة للصلاة ... فوقعت الضربة على أليته ... وقيل: إن الطعنة مسمومة لا يشفيها إلا الكي بالنار أو شراب يمنع النسل ... فجزع من النار... ورضي بانقطاع النسل ... وهو يقول : في يزيد وعبد الله ما تقر به عيني ... وأمر بالرجل فقتل لحينه ..

وأما علي ... فلم يخطئه ابن ملجم .... فضربه في جبينه بسيف مسموم وهو خارج للصلاة ... فمات بعد أيام ... ويظل ﷺ حتى آخر لحظة متمسكاً بمبادئ العفو والصفح مع ألد أعدائه ... فيحذر أولياء دمه من المثلة ... ويقول لهم : يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين ... تقولون : قتل أمير المؤمنين ... قتل أمير المؤمنين .. ألا لا يقتلن أحد إلا قاتلي !! .. انظر يا حسن إن أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة ... ولا تمثل بالرجل فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : "إياكم والمثلة .... ولو أنها بالكلب العقور"!! ...

ويطوي التاريخ صفحة ذهبية ... كتب فيها بأحرف من نور أنبل المعاني وأسمى المثل ... وبموته ﷺ ... ودع الناس فقيها ضليعاً ... وعالماً ورعاً .. ومجاهداً سباقاً .. وفارساً مغواراً ...

وما أروع القائل معلقاً على هذه الخاتمة :

إنها خاتمة فاجعة تصور لنا شيئاً كما تصوره البيعة كلها من قبل ابتدائها إلى ما بعد انتهائها ... وذلك هو النسيج الإنساني النابض الذي يتخلل حياة عليّ ... فما من حادثة من حوادث هذه الحياة النبيلة إلا وهي معرض حافل للعواطف الإنسانية برمتها ... تلتقي فيه عوامل النخوة والشجاعة والوفاء والإيمان والسماحة ... وتشتبك فيه مطامع الناس .. وأشواقهم وظواهرهم وخفاياهم .. ذلك الاشتباك الذي يخلقه الشعراء خلقاً في القصص والملاحم ... فلا يحكمونه بعض إحكام الواقع الملموس في سيرة الإمام ..

وهذه مزية عليّ بين خلفاء الإسلام قاطبة ... ينفرد بها لأنه انفرد بمثال من النفوس ومثال من العصور ومثال من العوارض الفردية والاجتماعية تؤلفه المصادفات في الأجيال الطوال .. ولا تحسن أن تؤلفه بمشيئتها في كل جيل ... تلك حياة حي ... ومصرع شهيد ...

ويختم عليّ حياته الحافلة بهذه الوصية الكريمة يوصي بها ولديه ... فيقول : أوصيكما بتقوى الله ... وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ... ولا تبكيا عن شيء زوي عنكما .. وقولا الحق وارحما اليتيم وأغيثا الملهوف وأصغيا للآخرة ... وكونا للظالم خصماً وللمظلوم ناصراً ... أعملا بما في الكتاب ولا تأخذكما في الله لومة لائم ... ثم انظر إلى محمد ابن الحنفية فقال: هل حفظت ما أوصيت به أخويك؟

قال : نعم ... فقال : إني أوصيك بمثله وأوصيك بتوقير أخويك لعظيم حقهما عليك، فاتبع أمرهما ولا تقطع أمراً دونهما ... وما زال يوصيهم بمحاسن الأخلاق والتقوى .. وما زال يقول : لا إله إلا الله ... حتى قبض صبيحة يوم الأحد ١٧ رمضان سنة ٤٠ هجرية بعد أن بلغ من العمر ثلاثاً وستين سنة ... وكانت خلافته ﷺ خمس سنوات إلا ثلاثة أشهر.



## بيت عليّ ....

### تزوج علي بن أبي طالب :

١ـــ فاطمة بنت رسول الله ﷺ ... وهي أول زوجاته ولم يتزوج عليها حتى توفيت عنده ... وأنجب منها الحسن والحسين وزينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى، وهي زوج عمر بن الخطاب .

٢ـــ أم البنين بنت حزام من بني عامر بن كلاب ... ولدت له العباس وجعفر وعبد الله وعثمان.

٣ـــ ليلى بنت مسعود التميمية ... ولدت له عبد الله وأبا بكر .

٤ ـــ أسماء بنت عميس الخثعمية ... ولدت له يحيى ومحمد الأصغر .

٥ ـــ الصهباء بنت ربيعة من بين جشم بن بكر ... وهي أم ولد من سبي تغلب .... ولدت له عمر ورقية .

٦ـــ أمامة بنت أبي العاص بن الربيع وأمها زينب بنت رسول الله ﷺ ... ولدت له محمداً الأوسط .

٧ ـــ خولة بنت جعفر الحنفية ... ولدت له محمداً الشهير بابن الحنفية.

٨ ـــ أم سعيد بنت عروة بن مسعود ... ولدت له أم الحسين ورملة الكبرى.

وكان له بنات منهن ... أم هانئ ، وميمونة ، وزينب الصغرى، ورملة الصغرى، وأم كلثوم، وفاطمة، وأمامة، وخديجة، وأم الكرام، وأم سلمة، وأم جعفر، وجمانة، ونفيسة، أمهاتهن أمهات أولاد شتى.

وكان النسل من ولده الخمسة : الحسن ، والحسين ، ومحمد بن الحنفية، والعباس ، وعمر رضي الله عنهم جميعاً ...

ورضي الله عن عليّ ...أمير المؤمنين ... ورابع الراشدين ... والتلميذ الأول في مدرسة النبوة.

ورضي الله عن هذا الجيل المتفرد العظيم ...

* * * *

## في زهد الإمام وسياسته

زهد عليّ من زهد عمر ... راشدي من راشدي ... وكلاهما عن رسول الله ﷺ ملتمس !!

وكما كان عمر مثلاً أعلى في الزهد ... كان علي كذلك ... والفرق بين سياسة الرجلين : أن الأول كان يحكم أمثال عليّ ... أما الثاني فكان يحكم أمثال الخوارج ، وتلك سنة الله في حركة الحياة !!

وليس زهد عليّ لوناً من الاشتراكية ، فهذه الكلمة النابية التي تمتد جذورها إلى مضمون فلسفي مادي .. وإلى نظرة جماعية تسحق الفرد، وتمكن طبقة من "أثرياء الاشتراكية" من السطو على مقدرات الشعب ... باسم الشعب ... ومن قتل الشعب .. باسم الشعب ... وإفقار الشعب وإذلاله .. باسم الشعب !!

هذه الكلمة المستحدثة لم يكن يعرفها هذا الجيل ... ولا يجوز إسقاطها على أعماله ... لأن تكاملية الإسلام لا تسمح بهذا التشقيق !!

ولهذا ... فليس صحيحاً لا منهجيًا ولا علميًا ... ولا تاريخيًا ... ولا إسلاميا ما قاله (خليل الهنداوي) (١) : "وعلي أول من ظهرت عليه آداب الاشتراكية في الإسلام روحاً وواقعاً، وقد كانت مثل هذه الاشتراكية سائدة في زمن خلافة الصديق وعمر ــ ولما جاء عثمان ــ وهو تاجر بطبعه ــ بدأ نظام الخلافة يبتعد عن الروح الاشتراكي، ويجيز التملك على مدى واسع، وتعطي فيه القطائع الفخمة، وتنفق الأموال على سعة، لكن عليًا وما أشرب من روح الإسلام وما أنشئت عليه نفسه من زهد وورع، واستخفاف بالدنيا، عاد إلى الأخذ بهذه الاشتراكية، القائمة على ترويض النفس عليها.. لا على أنها نظام يشبه أنظمة الاشتراكية الحديثة" .

فهذا الكلام مرفوض جملة وتفصيلاً، حتى مع التحفظ الأخير الذي ذكره الكاتب، وكما لا يجوز أن يقال: إن الإسلام هو المسيحية لأنهما يحثان أو يشتركان في الحث على الصدق والأمانة والحب والرحمة ...

---

(١) مع الإمام علي، ص: ١٠٦.

كما لا يجوز هذا، فإنه لا يجوز أن يقال: إن الإسلام دين الاشتراكية وإن المسلمين اشتراكيون.. فما عمل علي ولا عمر ولا أبو بكر ما عملوا خضوعاً لنزعة فلسفية ... أو نظرة مادية ... أو نظرة اجتماعية ... وإنما عملوه ــ أولاً وأخيراً ــ للإسلام !!

وأدلة الزهد في حياة عليّ كثيرة .. بحيث تصلح كل مواقف حياته دليلاً عليها..

وكما عاش أيام مكة وأيام العصر النبوي في المدينة حياة الزهد التي كانت سمة المجتمع بأسره... في فترة بناء الحضارة الإسلامية، كذلك عاش حياة الزهد وهو خليفة ولا فرق ... لأن المبدأ لا يتجزأ !!

وكم كانت فاطمة زوجته ــ رضي الله عنها ــ وهي ابنة نبي الأمة ــ عليه الصلاة والسلام ــ كم كانت تتعب من مظاهر الفاقة .. وتطلب توفير الحد الأدنى من الحياة " وليس مجتمع الرفاهية"، لكنها كانت تواجه بأبيها (عليه السلام) وبزوجها ﷺ يذكران لها ما عند الله في الآخرة ... وأن ذلك خير وأبقى ... فتصبر هي الأخرى !!

وأما حياة عليّ في ظلال الخلافة، وهي تلك الحياة الزاهدة العفة عن أموال المسلمين، الحريصة عليها ... فتؤديها هذه اللقطات الوجيزة التي نقتبسها ــ كمثال ــ من فيض لا حصر له من صور زهده ﷺ ...

لقد كان وهو أمير المؤمنين يأكل الشعير وتطحنه امرأته بيدها، وكان يختم على الجراب الذي فيه دقيق الشعير ، فيقول : "لا أحب أن يدخل بطني إلا ما أعلم"!! .

ويروي النضر بن منصور عن عقبة بن علقمة قال : دخلت على "علي" ﷺ فإذا بين يديه لبن حامض آذتني حموضته وكسرة يابسة ... فقلت : يا أمير المؤمنين، أتأكل مثل هذا؟ فقال لي : يا أبا الجنوب، كان رسول الله ﷺ يأكل أيبس من هذا ويلبس أخشن من هذا ــ وأشار إلى ثيابه ــ فإن لم أخذ بما آخذ به خفت ألا ألحق به ..!!

* * * *

كان أخوه عقيل كثير الأولاد ... غاية ما يكون فقراً وعوزاً ... وقد أتى يوماً إلى أخيه عليّ .. خليفة المسلمين يطلب إليه أن يعيره من بيت المال ما يسد به رمق أولاده ويكفيهم الجوع القاتل .. لكنّ عليًّا رده خائباً .. بل أدنى حديدة ملتهبة من جسمه ... فلما ضج عقيل منها ... قال عليّ له

: "ثكلتك الثواكل يا عقيل !! أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعب .. وتجرني على نــار ســجرها جبارها لغضبه .. أتئن من أذى، ولا أئن من لظى"...

وعن مجمع التميمي أن علياً قسم ما في بيت المال بين المسلمين، ثم أمر به فكنس ، ثم صلى فيه رجاء أن يشهد له المكان يوم القيامة!! وأخرج أبو نعيم في الحلية عن عليّ بن أرقم أنه رأى عليًّا يبيع سيفاً له في السوق، ويقول : من يشتري مني هذا السيف ؟ فو الذي فلق الحبة لطالما كشفت به الكــرب عن وجه رسول الله ﷺ ، ولو كان عندي ثمن إزار ما بعته !!

وكان علي يقسم ويقول :

والله الذي لا إله إلا هو ما رزئت من فيئكم إلا هذه ، وأخرج قارورة من كــم قميــصه ، فقــال أهداها إلي مولاي دهقان!! وصدق خامس الراشدين .. عمر بن عبد العزيز وهو من الأسرة الأموية التي تبغض عليًّا وتختلق عليه السيئات، وتخفي ما توافر له من الحسنات حين يقول :

أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب ...

* * * *

أما ابنته فلها حكاية طريفة نترك ابن أبي رافع خازن بيت المال (وزير الخزانة) يحكيها كما وقعت:

يقول ابن أبي رافع : "كنت على بيت مال عليّ بن أبي طالب وكاتبه، فكان في بيت ماله عقد لؤلــؤ كان أصابه يوم البصرة، فأرسلت إليّ بنت علي فقالت لي : إنه قد بلغني أن في بيــت مــال أمــير المؤمنين عقد لؤلؤ، وهو في يدك ... وأنا أحب أن يعيرنيه أتجمل به في يوم الأضحى .. فأرسلته إليها : عارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام يا بنت أمير المؤمنين؟ فقالت : نعم عارية مضمونة مــردودة بعد ثلاثة أيام ... فدفعته إليها ... وإذا أمير المؤمنين رآه عليها فعرفه ، فقال لها : من أين جاء إليــك هذا العقد؟ فقالت : استعرته من أبي رافع خازن بيت المال لأتزين به في العيــد ثم أرده!! فبعــث إليّ أمير المؤمنين فجئته، فقال لي : أتخون المسلمين يا ابن أبي رافع؟ فقلت : معاذ الله أن أخون المسلمين .

فقال : كيف أعرت بنت أمير المؤمنين العقد الذي في بيت مال المسلمين بغير إذني ورضاي.

فقلت : يا أمير المؤمنين، إنها بنتك ، وسألتني أن أعيره له تتزين به، فأعرتها إيــاه عاريــة مــضمونة

مردودة على أن ترده سالماً إليّ بوضعه ... فقال : رده من يومك وإياك أن تعود إلى مثلها فتنالك عقوبتي!!

وبلغت مقالته ابنته، فقالت له : يا أمير المؤمنين أنا ابنتك وبضعة منك، فمن أحق بلبسه مني؟ فقال لها : يا بنت ابن أبي طالب لا تذهبي بنفسك عن الحق!! أكل نساء المهاجرين والأنصار يتزين في مثل هذا العيد بمثل هذا؟ والله لو لم تأخذيه عارية مضمونة مردودة لكنت أول هاشمية قطعت يدها في الإسلام في سرقة ...!!

أجل ...

كان الزهد سياسة عليّ .. قبل الخلافة وبعدها .. وذلك لا يحتاج إلى دليل.

وعندما قتل رحمه الله لم يترك غير ستمائة درهم .. لا تساوي شيئاً ... ورحم الله عليًّا ... ولا نامت أعين المتاجرين بالشعارات الجوفاء ... ودعاة الفتنة والطائفية.

* * * *

## جوف علي ... علم وحكمة ...

علم عليّ من علم الإسلام ... فهو من أفقه الناس بالقرآن والسنة ... ومنهما ... ومن مدرسة النبوة، استمد ثقافته الدينية .... والبلاغية ... أيضاً ..

والقرآن ــ كما يقول علي ــ : "ظاهره أنيق وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه ولا تكشف الظلمات إلا به"....

ولا غرابة ــ إذن ــ في أن يكون القرآن مصدر ثقافة (علي) الأول ولا غرابة إذن أن يقول (عليّ) في موضع آخر : "تعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب ، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أحسن القصص"...

إنه العلم الحق المستقى من مصادر العلم الأصلية، أما علم الكهانة والنجوم فهو علم كذب ودجل وخرافة ... ويحذر منه علي فيقول للناس : "إياكم وتعلم النجوم، إلا ما يهتدى به في بر أو بحر، فإنها تدعو إلى الكهانة والمنجم كالكاهن، والكاهن كالساحر، والساحر كالكافر والكافر في النار ... سيروا على اسم الله" ...

وهذا القول ينفي عن علي ــ وحاشاه ــ أن ينسب إليه هذا الغثاء الذي نسب إليه ... عن علم الغيب ... أو ما يسمى بكتاب "الجفر"، والذي تطبعه مطابع مشبوهة .. وتصور فيه عليًّا قد رسم خريطة المستقبل ... مع أن القرآن الكريم يحكي عن النبي ﷺ ــ وهو أفضل من علي ــ قوله : ﴿لَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاستَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾[1] ... فمن أين لعلي ــ حاشاه ــ علم الغيب الذي ينسبونه إليه؟!!

وإذا جاز أن عليًّا حذر من فتنة ستقع، أو شيئاً من هذا القبيل، فليس ذلك إلا من باب ما يستطيع كل إنسان فطن ذكي مؤمن أن يتنبأ به!!

مصداقاً لقول النبي ﷺ "اتقوا فراسة المؤمن"، وقد تنبأ بعض الناس ــ ومنهم المؤرخ ابن حيان ــ بزوال ملك المسلمين في الأندلس قبل زواله بأربعة قرون ... فهل كان ابن حيان المؤرخ يعلم

---

(١) الأعراف : ١٨٨.

الغيب؟ أم أنها مقدمات يستطيع المرء أن يتنبأ بنتائجها ... كما يدل إهمال المذاكرة على الرسوب، وكما يدل العمل المتقن على النتيجة الطيبة .. وهكذا ...!!

* * * *

وفيما يروى عن ابن عباس أنه كان يقول : أعطي (علي) تسعة أعشار العلم والله لقد شاركهم في العشر الباقي .

وقال ـــ أيضاً ـــ إذا ثبت لنا الشيء عن (علي) لم نعدل إلى غيره ... وحق (لعلي) لذلك أن يكون المفتي والمستشار الديني طيلة عهدي أبي بكر وعمر .. ثم في فترة ما قبل الفتنة في عهد عثمان...

* * * *

وعندما زوج النبي الكريم ﷺ فاطمة لعلي ...

قال لها : (زوجتك سيداً في الدنيا والآخرة).

وإنه لأول أصحابي إسلاماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حلماً.

فكأن كثرة علمه كانت من مؤهلاته في استحقاق فاطمة ...

وعن سعيد بن المسيب ﷺ أن عمر بن الخطاب كان ﷺ يتعوذ من معضلة ليس لها أبو الحسن!!

ويبدو أنه لهذا شاع قولهم: "معضلة ولا أبا حسن لها".

وكان علي يقول، ولا يملك غيره أن يقول مثل مقالته :

"سلوني سلوني عن كتاب الله تعالى فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أنزلت بليل أو بنهار".

فكأنه ﷺ كان يشعر بأن ما في صدره من علم إنما هو أمانة يجب أن تؤدي، وكان يريد أن يوضح لهم ما يمكن أن يكون محلاً لاجتهادهم واختلافهم عن رسول الله ...

* * * *

ويصح أن يقال : إن عليًّا ﷺ أبو علم الكلام في الإسلام؛ لأن المتكلمين أقاموا مذاهبهم على أساسه، كما قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ... أما الفقه ، فإمامه الأكبر أبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد وجعفر بن محمد قرأ على أبيه وهكذا ينتهي الأمر إلى علي ﷺ .

وقد قرأ مالك بن أنس على ربيعة، وقرأ ربيعة على عكرمة، وقرأ عكرمة على عبد ا لله بن عباس، وقرأ عبد الله بن عباس على "علي" ﷺ ... وقيل لابن عباس : أين علمك من علم ابن عمك؟

فقال : كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط !!

* * * *

وعن ابن عباس وقد سأله الناس: أي رجل كان عليًّا؟

فقال : كان جوفه ممتلئاً حكمة وعلماً وبأساً ونجدة ، ومع قرابته من رسول الله ﷺ .

وعن عائشة ﷺ أنها قالت للناس : من أفتاكم بصوم عاشوراء؟ قالوا : علي ... قالت : علي ... أما أنه لأعلم الناس بالسنة ...!!

وما نظنه مع كثرة علمه، وشديد حجته، إلا وقد امتلأ ثقة بنفسه فقد كان ملاك الأمر في أخلاقه... أنه كان لا يتكلف إظهار شيء ولا يتكلف إخفاء شيء ... ولا يقبل التكلف حتى من مادحيه ... فربما أفرط الرجل في الثناء عليه وهو متهم عنده فلا يدعه حتى يعلن له طويته ... ويقول : "أنا دون ما تقول ... وفوق ما في نفسك" ...!! وكانت قلة التكلف هذه توافق منه خليقته الكبرى من الشجاعة والبأس والامتلاء بالثقة والمنعة ... وكان دائماً عند قوله :

(علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك .. على الكذب حيث ينفعك ... وألا يكون في حديثك فضل على علمك .. وأن تتقي الله في حديث غيرك) !!

* * * *

وما نظن علم (عليّ) إلا علم مسلم يتخذ العلم طريقه إلى الآخرة... يعمل بما يعلم ... ولا يتكلف التعالم، ولا يتظاهر به، ولا يعلن عنه!! وهو علم أيضاً يستمد أصوله من أوثق المصادر ويتحرك في دائرة الفكر الإسلامي ... نصًّا وروحاً .

وقد ذكرنا براءته من علم الكهانة والسحر والإخبار بالمستقبل، وذكرنا رأيه في ذلك ﷺ .

ونحن نضيف هنا أن كثيراً من سجع الكهان الذي نسب إليه ... إنما هو تحريف تأوله بعضهم واصطنعه له ... باسم الحب والتقدير .. فما كان علي ﷺ (سجاعاً) يسجع كسجع الكهان ... وبالتالي فإن كثيراً مما رُوي عنه في هذا الباب يحتاج إلى تمحيص وتدقيق ... سواء كان هذا الذي ورد عنه ورد في نهج البلاغة للشريف الرضي ... أو في غيره ..!!

وإنه لغريب ألا نسمع لعلي شيئاً من ذلك أيام الرسول ﷺ وأيام الراشدين الثلاثة ... فلما كانت الأمور على النحو الذي كانت عليه ... وظهرت طائفة تغالي في علم (علي) ظلماً ... وتنسب إليه علماً فوق علم البشر كان سهلاً أن يخترع بعضهم له الأقوال المزخرفة المزركشة ... التي لم يعرفها جيل عليّ ... والتي قضى عليها القرآن الكريم والحديث النبوي فيما قضى عليه من صور التفيهق والتشدق والتعاظل .. والتكلف البغيض !!

* * * *

ورحم الله عليًّا ... المفترى عليه !!.

## القاضي العادل ... الذكي ..

يعتبر تولي الإمارة والقضاء في الإسلام نهاية رحلة من العلم والدين والخبرة والثقة والبعد عن كل شبهة ...

ولهذا استحق (علي) القضاء ــ والإمارة ... بل استحق أن يكون رائداً في هذا الباب .

وأن له الأقضية صارت مثلاً ... وهي تدل على قدم عال فريد في فقه الإسلام ... وفقه حقائق الأشياء وأبعاد الأمور، كما أن له وصايا في أسلوب الحكم أصبحت آثاراً خالدة في هذا الفن العملي الخطير ...

****

وتكاد تجمع كتب السيرة الموثوق بها عليّ أن عليًّا كان ذا عقل قضائي نفاذ إلى المشاكل، وقد تجلى ذلك منذ ولاه الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ في حياته قضاء اليمن اعتماداً على كتاب الله وسنة نبيه، وعلى ما يتمتع به من عقل حصيف ...

كما تجلى ذلك في كتابه إلى (الأشتر النخعي) عامله على مصر ... كما تدل على ذلك وصيته الأخرى لأحد عماله، والتي يقول فيها :

"أما بعد فقد شكا دهاقين أهل بلدك منك غلظة وقسوة، واحتقاراً وجفوة ، فالبس لهم جلباباً من اللين تشوبه بطرف من الشدة، وداول لهم بين القسوة والرأفة، وأمزج لهم بين التقريب والإدناء، والإبعاد والإقصاء" .

ويقول : "واخلط الشدة بضغث من اللين، ورفق ما كان الرفق أرفق، واعتزم الشدة حين لا يغني عنك إلا الشدة، واخفض للرعية جناحك، وألن لهم جانبك، وآس بينهم في اللحظة والنظرة والإشارة والتحية، حتى لا يطمع العظماء في حيفك، ولا ييأس الضعفاء من عدلك".

****

ومن أقضية (عليّ) الدالة على علو كعبه وتوفيقه وفطنته وفقهه لروح الإسلام ونصوصه ... وفطنته ــ ما روى من أنه حين ذهب إلى اليمن عرضت عليه قضية أربعة وقعوا في حفرة حفرت ليصطاد فيها الأسد، وقد سقط أول الأمر رجل ثم تعلق بآخر فجره إليه، وتعلق الثاني بثالث، والثالث برابع وهجم عليهم الأسد ... فماتوا جميعاً.

فتنازع أولياؤهم حتى كادوا يقتتلون، فقال عليّ : أنا أقضي بينكم، فإن رضيتم فهو القضاء، وإلا حجزت بينكم حتى تأتوا رسول الله (عليه الصلاة والسلام) ليقضي بينكم، ثم أمرهم أن يجمعوا من القبائل الذين حفروا البئر ربع الدية، وثلثها، ونصفها، ودية كاملة، الدية ربع للأول؛ لأنه أهلك من فوقه، وللذي يليه ثلثها لأنه أهلك من فوقه، وللثالث النصف لأنه أهلك من فوقه (وهو واحد) وللأخير دية كاملة لأنه لم يهلك أحداً ... فأبو أن يرضوا فأتوا رسول الله ﷺ فلقوه عند مقام إبراهيم فقصوا عليه القصة ... فأجاز قضاء عليّ ..!!

* * * *

ومن أقضيته التي تدل على قوة إدراكه وسرعة فهمه لدقائق مسائل العلم ... ما قيل من أنه جاءته أخت رجل مات وقالت له : مات أخي عن ستمائة دينار، فلم أرث منها إلا ديناراً واحداً ... فقال لها : لعل أخاك ترك زوجة وابنتين وأماً، واثني عشر أخاً .. وأنت؟

ــ فقالت نعم .

ــ قال : معك حقك من الميراث الذي خصك الله به !!

* * * *

وجاء رجل إلى معاوية ﷺ، فسأله عن مسألة، فقال : سل عنها عليّ بن أبي طالب فهو أعلم. قال : يا أمير المؤمنين جوابك فيها أحب إليّ من جواب عليّ ... قال : بئسما قلت ... لقد كرهت رجلاً كان رسول الله ﷺ يغزره بالعلم غزراً، ولقد قال له : "أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي"!!

* * * *

هذه شهادة معاوية لعلي ـــ رضي الله عنهما ـــ وهي كلمة حق يقولها معاوية، على الرغم مما كـــان بينهما ...خضوعاً منه للعدل وللحق { وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْـدِلُوا} (١)... بـــل إن معاوية يعنف الرجل لأنه يبغض عليًّا ...

وكيف يبغض مسلم رجلاً جعله الرسول ﷺ منه بمنزلة هارون من موسى؟!!

وبالتالي ... وعلى الرغم من الخلاف حول التصورات والأساليب مما أدى إلى ما أدى إليه بين علـــي ومعاوية ... نعتقد أن "البغض" لم يكن أصل العلاقة بينهما ...

وقد اختلف محمد بن أبي بكر مع أخته أم المؤمنين عائشة ـــ رضي الله عنهما ـــ كما اختلف كـــثير من الآباء مع الأبناء، وكثير من الأخوة مع بعضهم البعض .

وقد كان المسلمون ـــ على كثرتهم ـــ مقسمين بين علي ومعاوية ... وكان أهل الشام مع معاويـــة، مقتنعين به وبآرائه عن يقين ... كما أن أهل العراق ناصروا عليًّا عن يقين ... مـــصحوب بنزعـــة بعضهم في الشقاق والخلاف !!

فكانت النتيجة لصالح معاوية في الدنيا ... أما عند الله ... فالمسلم ملزم بأقوال الرسول ﷺ في هـــذا الجيل العظيم ... وملزم بالإصغاء لقول الله تعالى في كتابه الكريم في مثل هذه القضايا التي لا وضوح فيها ..." تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (٢).

إن هذا هو القضاء العدل في هذه القضية الشائكة، وعلى المسلم الالتزام بقضاء القرآن ...

****

---

(١) المائدة : ٧.

(٢) البقرة : ١٣٤.

# الخاتمة

**وبعد ...**

فإن القول في أمير المؤمنين (عليّ بن أبي طالب) سيظل ممتداً في التاريخ؛ لأنه قبس من نور الإسلام الخالد ... ونور النبوة الوضيء الذي لا ينطفئ وهجه ... ولا يخفت شعاعه ...

وما علينا في نهاية الشوط الوجيز إلا أن ندع عليًّا، يقدم لنا بعض كلماته ـ التي وردت عنه ـ نأخذها منه هدية الراشد الصالح للأمة التي نرجو أن تعود إلى رشدها ... وتقتفي أثر هذا الجيل الفذ العظيم .. بدل أن تكون أمة بلا وزن ... من الرعاع والهمج الذين يتبعون كل مسيخ دجال .

* * * *

إن عليًّا يقول لنا :

ـ الناس ثلاثة : فعالم رباني ، ومتعلم على سبيل النجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح ... لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق.

ـ العلم خير من المال .

ـ العلم يحرسك وأنت تحرس المال .

ـ العلم يكسب العالم الطاعة في حياته وجميل الأحدوثة بعد موته.

ـ لا تخلو الأرض من قائمين لله بحجة، لئلا تبطل حجج الله وبيناته ... أولئك هم الأقلون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً، بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم .. هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فاستلانوا ما استوعر منه المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالنظر الأعلى ... أولئك خلفاء الله في دنياه، ودعاته إلى دينه ...!!

ـ احصد الشر من صدر غيرك بقلعه من صدرك.

ـ لا تظن بكلمة خرجت من أحد سوء، وأنت تجد لها في الخير محتملاً .

ـ أن أفضل الزهد هو إخفاء الزهد .

ـــ إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه.

ـــ احذروا صولة الكريم إذا جاع ... واللئيم إذا شبع.

* * * *

**يا دنيا ... إليك عني !**

**إليّ تعرضت؟ أم إليّ تشوفت؟ هيهات !!**

**غري غيري ... لا حاجة لي فيك !!**

قد طلقتك ثلاثة لا رجعة فيها، فعيشك قصير، وخطرك يسير، وأملك حقير، آه من قلة الزاد، وطول الطريق، وبعد السفر، وعظم المورد.

ـــ خلاصة رأي الإمام في المرأة أنها شر كلها ، وشر ما فيها أنه لابد منها ...

ـــ خيار خصال النساء شرار خصال الرجال : الزهو والجبن والبخل ... فإذا كانت المرأة زهوة لم تمكن من نفسها، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها، وإن كانت جبانة فرقت من كل شيء يعرض لها ...

ـــ نفس المرء خطاه إلى أجله ...

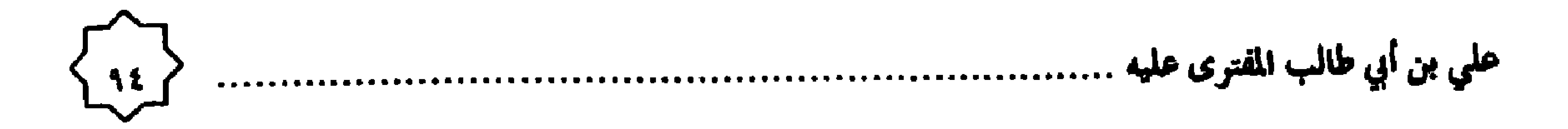
ـــ المرء مخبوء تحت لسانه ...

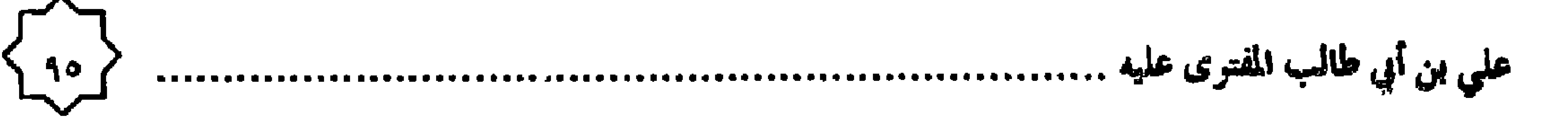
ـــ المرء مهاب حتى يتكلم ...

ـــ من لان عوده كثف أغصانه ...

ـــ كل وعاء يضيق بما جعل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع ....

* * * *






## المحتويات

* * * *

